المملكة المغربية
جامعة محمد الخامس
كلية الآداب والعلوم الإنسانية
شعبة الدراسات الاسلامية
الرباط-أكدال



القرويين و دورها في ترسيخ الهوية المغربية

إعداد :
أحمد التازي

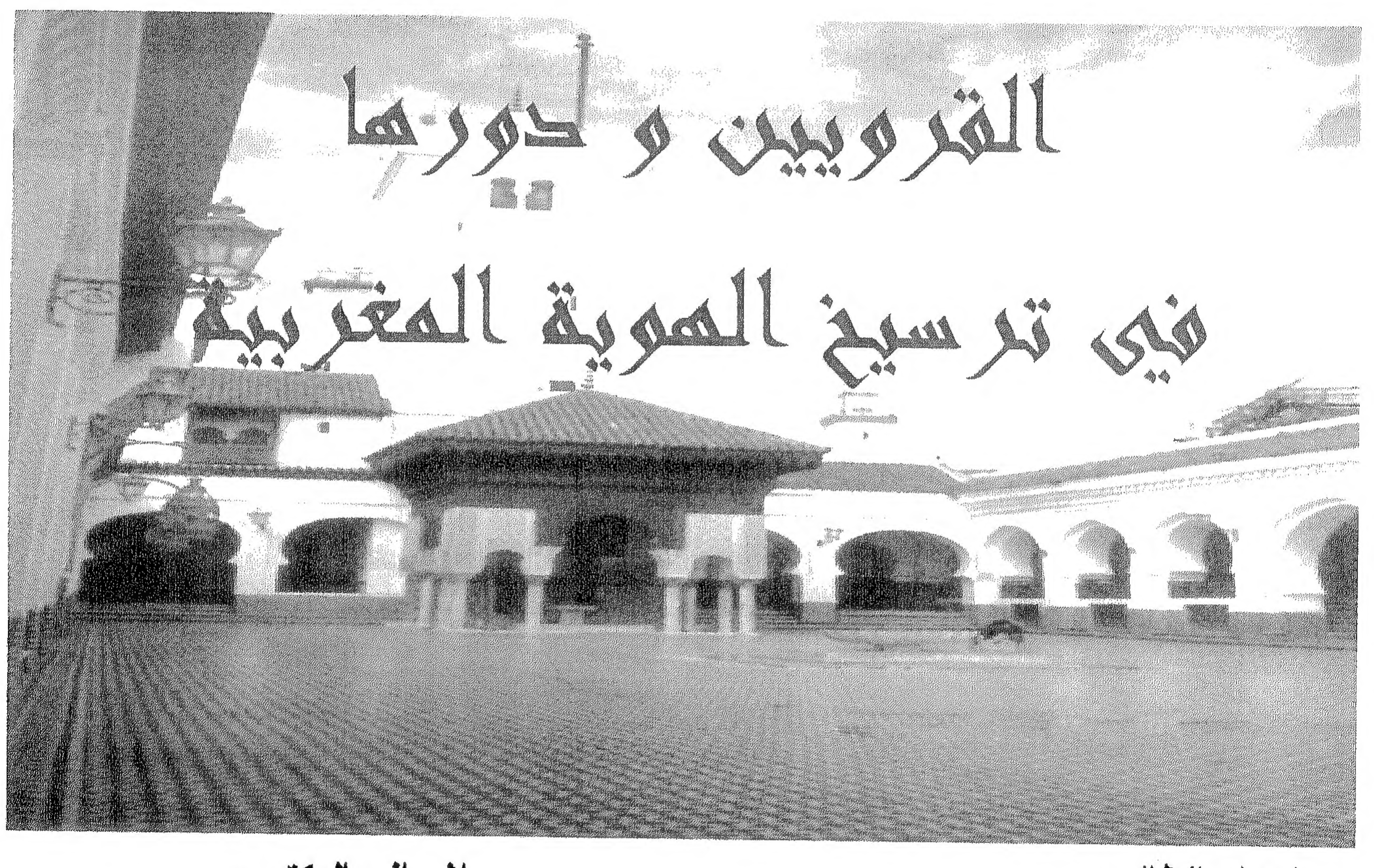
إشراف الدكتور:
الأستاذ محمد الروكي

السنة الجامعية: 2005 - 2006

المملكة المغربية
جامعة محمد الخامس
كلية الآداب والعلوم الإنسانية
شعبة الدراسات الاسلامية
الرباط-أكدال



بحث لنيل الإجازة بعنوان:



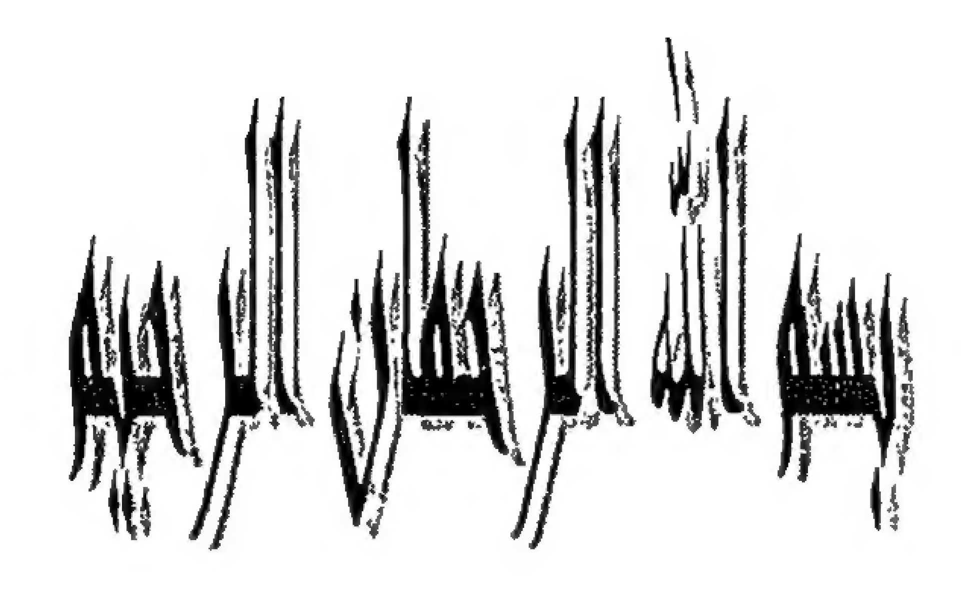
إعداد الطالب:

أحمد التازي

إشراف الدكتور:

الأستاذ محمد الروكي

السنة الجامعية: 2005 – 2006



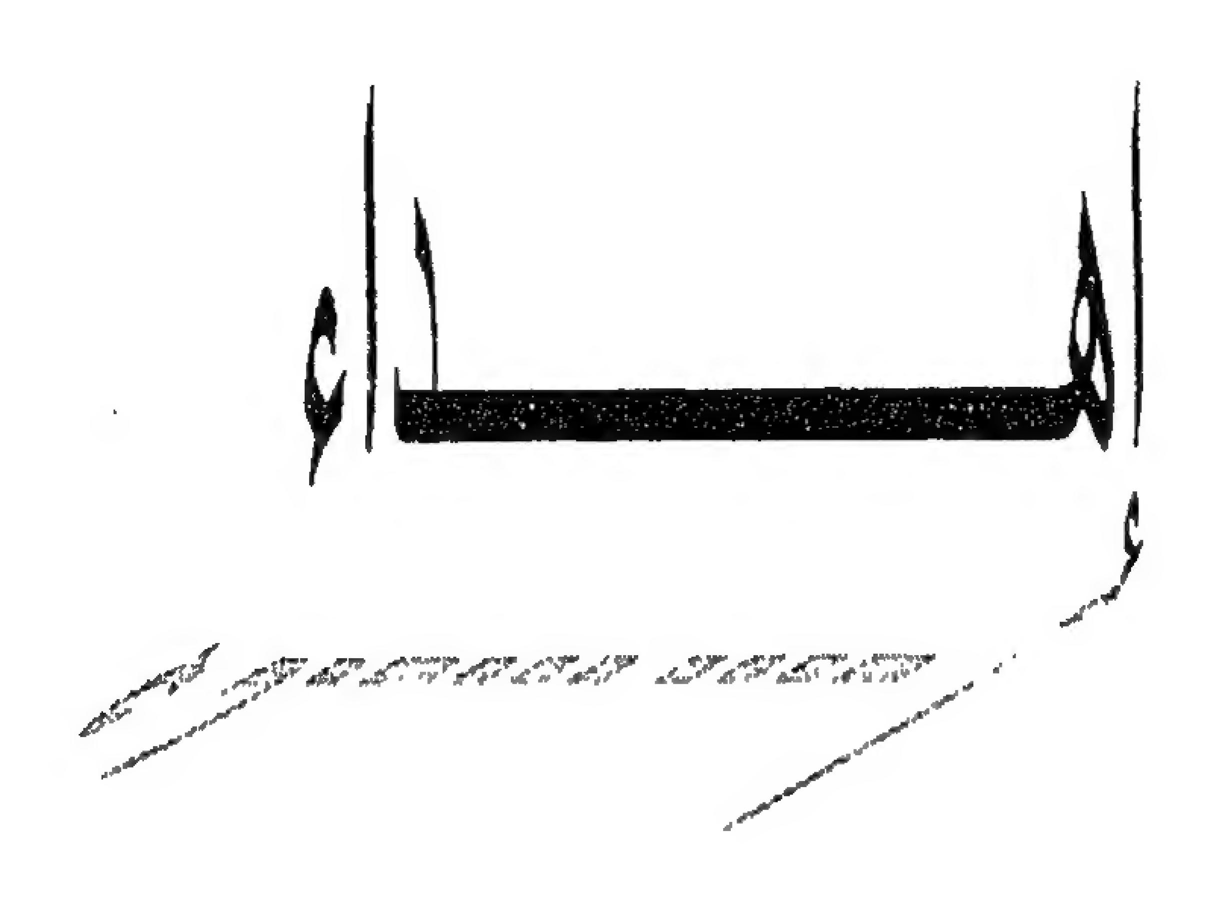
﴿ إن أريد إلا الإصلاح ما استطعت وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب ﴾

صدق الله العظيم

سورة هود آية 88

شكر وتقدير

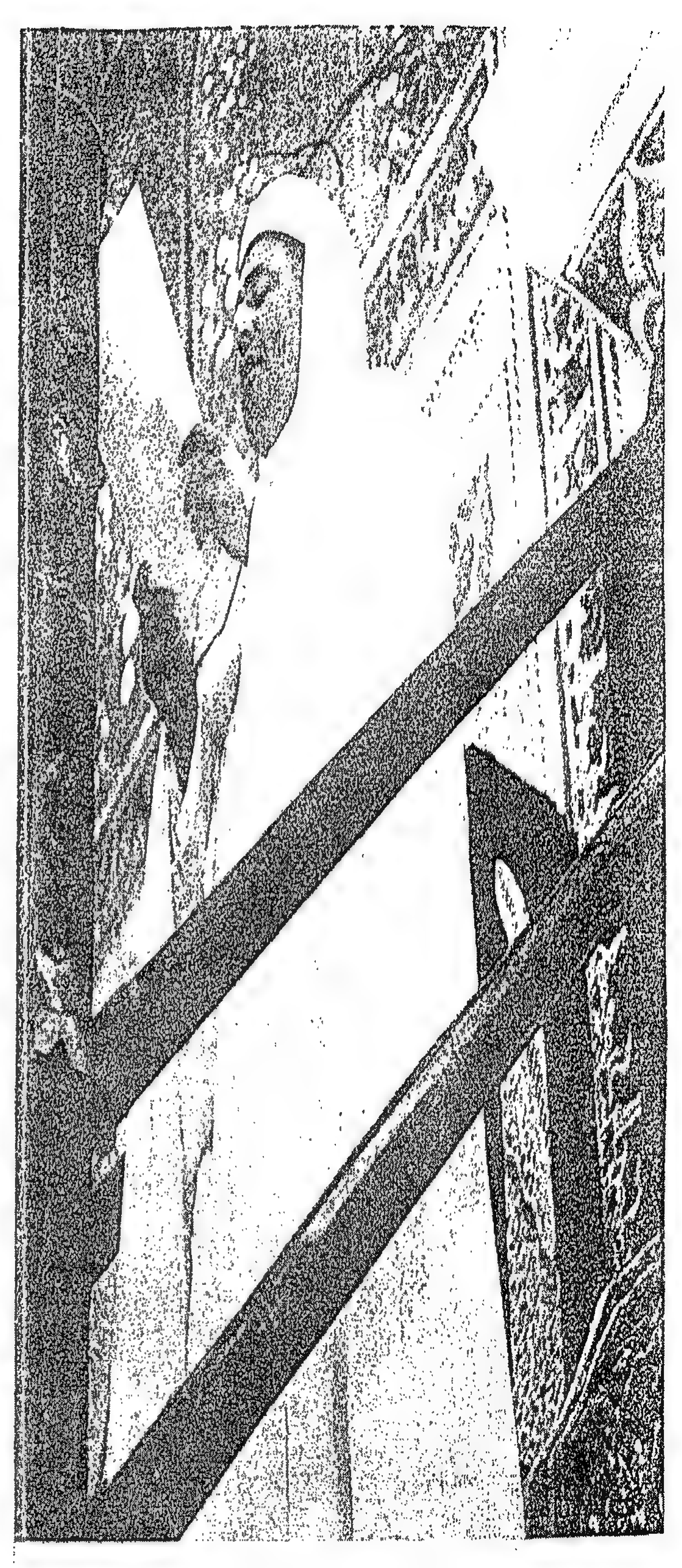
أتقدم في البدء بشكري وتقديري الكبيرين إلى أستاذي الجليل الدكتور محمد الروكي، الذي ضحى بوقته من أجل أن أستضيء بعلمه وخبرته في سبيل إنجاز هذا العمل.



إلى روح السيدة فاطمة الفهرية التي لم تترك لها ترجمة في كتب التاريخ، سوى أنها كانت بانية جامع القرويين فنبهت سائر الرجال إليها كمعلمة حضارية كان لها الحظ الأوفر في حفاظ المغرب على مقوماته ومكوناته.

(... هذه الكلية الزاهرة بماضيها المجيد، الملئ بما يفيد، وبمفاخر آبائنا العلمية، في ميادين التهذيب والدين والوطنية" هذه الكلية المشهورة بما قدمته للانسانية من خدمات، وانجبت من أبناء وبنات ونشرت من حضارات، هذه الكلية العظيمة التي كانت منذ العهود القديمة، مقصد الراغبين، وقبلة المتعطشين، وكعبة الطالبين، فهي حرية بكل اعتبار، ورعاية واكبار، وإذا كان العهد البائد قد حال دون تحقيق كل المقاصد فهذا العهد الجديد، سيزيل بحول الله، الموانع، وييسر الدوافع ويساعد على تتميم البناء السابق، وتطبيق برامج الاصلاح اللائق، المتفق مع عظمتها، والمسايسر لشهرتها، والمنجه لتحقيق رسالتها..)

من خطاب جلالة محمد الخامس على منبر جامع القرويين، يوم الجمعة 4 حجة 1375 (13 يوليوز 1956)



جلالة محمد الخامس على منبر القرويين يشيد بماضيها .. ويعلق الآمال على مستقبلها ..



لم يكن المسجد في دار الإسلام بما في ذلك المغرب خاصا بالعبادة وحسب، بل كان مدرسة للتعليم والتثقيف كذلك، فمن البديهي أن تضم إحدى زواياه مجموعة من المصاحف وكتب الدين والتفسير والحديث والتاريخ وغيرها تكون رهن إشارة الباحثين وطلاب العلم عموما. وإذا سكتت المصادر عن ذكر هذا النوع من المكتبات فلا يعني أن المساجد كانت خالية منها، فالتنافس العلمي الذي كان قائما بين مسجد الأندلس ومسجد القرويين في فاس منذ القرن الثالث الهجري يدل -قطعا- على وجود مجموعات من الكتب في المسجدين معا يرجع إليها الطلبة للبحث والتحصيل.

ومما لا ريب فيه أن مساجد المغرب كانت مزودة بمجموعات من الكتب من وقف المحسنين أو من إهداء الملوك والوزراء والعلماء والشيوخ أو من اقتناء المسؤولين عليها يقرأ فيها الخاص والعام. ولما انتهت المساجد من وظيفة التعليم بعد استقلال المغرب ضمت محتوياتها إلى الخزائن العامة التي أسستها الدولة. وكان التعليم العالي في المغرب منحصرا في المساجد الكبرى التي اصطلح عليها بالمساجد الجامعة، وقد برز من بينها مسجد القرويين بفاس وابن يوسف بمراكش اللذان تخرجا فيهما أكبر مفكري المغرب ومؤلفيه وعلمائه. وكلاهما كان مزودا بخزانة كتب هامة.



إذا كانت الفسطاط والقيروان نفحتين زكيتين من الصحابة والتابعين فإن الله أثر مدينة فاس بأن تكون من آل البيت الأقربين، وأن تضفي عليها هذه النسبة من قبسها وأنوارها، وفيضها وأسرارها، لقد ورد ادريس غداة شهر ربيع الأول من سنة اثنين وتسعين ومائة (4 يناير 808م) على عين المكان ليختط شوارع العاصمة وأبوابها وجسورها ... وقدموا للإمام الشاب فأسا بديعة مصنوعة من ذهب وفضة ليفتتح بها أعمال التشييد والبناء ... ورفع إدريس يديه إلى الله ضارعا: "اللهم اجعلها دار علم وفقه ..." لقد وضع ادريس الحجرة الأولى للمدينة، ولكأنما وضعها لحي جامعي دائم الحياة، فقد بلغ عدد الكراسي العلمية بها في بعض الأحيان مائة وأربعين كرسيا، تعاقب عليها كبار العلماء والفقهاء والأدباء والأطباء ... ولكأنما وضعها لمركز ديني ظل على مر الزمن قبلة للمؤمنين يحجون إليها من مختلف الآفاق، لتصفية نفوسهم، وتبيين طريق وجهتهم ... ولكأنما وضعها لقاعدة سياسية ما انفكت صاحبة الحل والعقد في كل التطورات الهامة التي شهدتها الدولة، وما انفكت تسهم بالحظ الأوفر في تسيير شؤون البلاد وتدبير أمورها في الداخل والخارج.

وقد كان لاتخاذ الإمام داره بعدوة القرويين أثر كبير في ازدهار العدوة هذه، وكثرة حركتها، وتعدد مرافقها. وقد نعتها اليعقوبي –نتيجة لذلك– بالمدينة العظمى، وأنشد فيها محمد بن اسحاق البجلي:

يا عدوة القرويين التي كرمت	لازال جانبك المحبور ممطورا
ولا سرى الله عنك ثوب نعمته	أرض تجنبت الآثـــام والزورا

كان في عداد المهاجرين القيروانيين، الذين التجأوا إلى فاس منذ الأيام الأولى للإمام ادريس بن ادريس، فريق من أسرة فهرية لم يلبث أن التحقت به بقية أفراد الأسرة في أيام الإمام يحيى الأول حفيد ادريس، ومن بين هؤلاء الفقيه أبو عبد الله محمد بن عبد الله الفهري القيرواني الذي أدركه أجله بعد وصوله، فترك ثروة طيبة لكريمتيه فاطمة أم البنين ومريم، ويتأكد أن السيدتين كانتا على جانب من العلم والفضل معا، لقد أمست بالناس حاجة إلى مسجد جامع كبير،

فإن جامع الأشياخ بالعدوة الشرقية، ومسجد الشرفاء بالعدوة الغربية، كلاهما أضحى لا يفي بحاجة الناس، وقد وقع اختيار الست فاطمة على حقل كان مما صار لأحد رجال الفضل من (هوارة) عندما نادى الإمام إدريس الثاني بتعمير العاصمة منذ حوالي نصف قرن.

ذلك جامع القرويين، الذي يمتاز دون سائر مساجد العالم الإسلامي بأنه أول بيت لله تشيده فتاة مسلمة، فقد كان المعهود حتى ذلك التاريخ أن تقوم الدولة نفسها ببناء المساجد، العاهل أو من يمثله، وقد دخلت فاطمة التاريخ بفعلها العظيم هذا، في مدينة تعد أول عاصمة للإسلام في هذه الديار، ولابد أن لهذه الخصائص أثرا فيما أطبقت عليه الموسوعات الدولية من أن فاسا تعد في صدر المدن المقدسة، بل إنها تأتي في المرتبة الرابعة بعد مكة المكرمة ومدينة الرسول وبيت المقدس.

لم يحظ تاريخ جامعة القرويين بالعناية الكافية من المؤرخين المحدثين بالرغم من أن تاريخها يعتبر حلقة من حلقات الدراسات الإسلامية والتاريخية قديمها وحديثها.

وإذا كانت العصور الأولى قد حظيت ببعض الالتفات الذي لم يكن منه بد لكتابة التاريخ الإسلامي عامة وتاريخ الأندلس خاصة، فإن تاريخ جامعة القرويين وما قام به أبناؤها ظل مهملا إلى أن قيض الله له الدكتور الأستاذ عبد الهادي التازي الذي ألف كتابه "جامع القرويين المسجد والجامعة بمدينة فاس"[1] والله يثيبه خير الجزاء.

. ففي هذا البحث المتواضع سأحاول رسم الخطة التي يجب اتباعها للتعريف بالقرويين والنهوض بها إن شاء الله تعالى.

[1]- د عبد الهادي التازي: جامع القرويين المسجد والجامعة موسوعة لتاريخها الفكري والمعماري، الطبعة الأولى ببيروت 1972 (451/2).

المبحث الأول :

نبذة عن القرويين



إسم القرويين:

كلمة القرويين تخفيف للفظ "القيروانيين" نسبة إلى القيروان، وهو معهود في كتب الفقه والنوازل، كما قالوا في النسبة إلى جيلان: الجيلي، ويرد تارة موصوفا، وأخرى غير موصوف: كقولهم: شيوخ قرويون، ومذهب القرويين، وبذلك سلم هيكل لفظ (القرويين)، وبقي على هيئته لا تنال منه معاول العوامل وإن اختلف عليه ... ولابد أن نشير إلى أن بعض المشارقة ربما فهموا أن اللفظ جمع لكلمة قروي نسبة إلى القرية، وربما ينطقون بالقاف مضموما.

تاريخ بناء جامع القرويين

يعتبر مسجد القرويين بفاس من أعرق المساجد المغربية وأقدمها. وتكاد تجمع الدراسات التاريخية على أن هذا المسجد بنته فاطمة الفهرية (أم البنين) في عهد دولة الأدارسة..

بداية بناء مسجد القروين:

شرع في حفر أساس مسجد القرويين والأخذ في أمر بنائه أول رمضان من سنة 245 (30 نونبر 859) بمطالعة العاهل الإدريسي يحيى الأول، وأن أم البنين فاطمة الفهرية هي التي تطوعت ببنائه وظلت صائمة محتسبة إلى أن انتهت أعمال البناء وصلت في المسجد شكرا لله"، وهذه حقيقة تاريخية لا يسمح الباحث لنفسه بالاستسلام للشك فيها والتردد أمامها لاسيما وهي ترجع لوقت مبكر من تاريخ المغرب أعني وقت بني مرين أوائل القرن الثامن الهجري، بيد أننا نجد أنفسنا اليوم أمام وثيقة معاصرة للأدارسة، إنها لوحة منقوشة عثر عليها – عند أعمال الترميم – في البلاط الأوسط فوق قوس المحراب القديم الذي كان للقرويين قبل قيام المرابطين بتوسعة المسجد، لقد اكتشفت مدفونة تحت الجبس وقد كتب عليها – في جملة ما كتب – بخط كوفي إفريقي عتيق: "بني هذا المسجد في شهر ذي القعدة من سنة ثلاثة وستين ومائتي سنة مما أمَرَ به الإمام أعزه الله داود بن إدريس أبقاه الله ... ونصره نصرا عزيزا". وما دمنا في استعراض الآراء حول تاريخ بناء القرويين لا بد أن نعرض لرأي ثالث نقله الدكتور أوسكار لانز[2] فلقد ساق ترجمة لنقش قيل أنه عثر عليه فوق "صفيحة فضية" مغروزة

2- Voyage au Maroc. Vol. 2, 1886, Paris Oskar Lenz

في أحد جدران المسجد وتوجد ضمن هذا النص العبارة التالية: "... بنى يوم الخميس من سنة 306 أول شهر ربيع النبوي.." أي في أيام ولاية يحيى الرابع...

وحتى نرجع إلى حديث فاطمة وداود نشير إلى أن رواية الدكتور لانز لا نعيرها أي وزن من الناحية التاريخية لأنها خالية من كل سند ملموس لاسيما مع ما حكاه عن الطالب إدريس الذي زوده بهذه الوثيقة والذي لم يكتمه أنه وجد صعوبة في الوصول إلى بقية النقش، الأمر الذي يقرب إلى "أساطير" السياح أكثر مما يخدم الحقيقة التاريخية، هذا مع العلم بأن أول ربيع الأول يوافق – حسابيا يوم الثلاثاء وليس يوم الخميس... وبعد فلنرجع إلى ابن أبي زرع، واللوحة المنبعثة.

ولكن قبل أن نفتح الموضوع يجب أن نتعرف في كلمة وجيزة عن الإمام داود ابن إدريس تاركا التفصيل للبحث الذي كتبه بعض الباحثين عن هذه الشخصية[3]:

بالرغم من أن جميع المؤرخين بخلوا على داود هذا بأكثر من كلمة واحدة تتلخص في أنه "لما توفي إدريس الثاني قام بالأمر بعده ابنه محمد، وأن هذا الأخير قسم بلاد المغرب بين كبار إخوته ترضية لهم وكان من بينهم داود الذي استأثر بإقليم تازة." وقد رددت سائر المصادر صدى "الفتنة" التي نشبت بين بني إدريس على أثر هذه "الترضية" لكنها لم تعد بحال لذكر اسم داود، وقد كاد هذا الاسم يعد في عداد الشائعين لولا عناصر ثلاثة:
أولها: اليعقوبي الذي يذكر أن داود ابن إدريس كان واليا على عدوة الأندلس وأنه كان "يدافع" يحيى صاحب عدوة القرويين المعروفة بالمدينة العظمى.

ثانيا: الدرهم الموجود بالمكتبة الوطنية بباريز الذي يحمل اسم الإمام داود ابن إدريس[4].

ثالثا: هذه اللوحة الأثرية التي يحتفظ بها الآن في المركز الرئيس لمصلحة الآثار بالمملكة المغربية.

هل القرويين من تأسيس فاطمة؟ أو من عمل داود؟

كتب الدكتور عبد الهادي التازي بمجرد وقوفه على اللوحة كلمة في الموضوع نشرت في مختلف المجلات العلمية سواء بالمغرب[5] أو القاهرة[6] أو تونس[7] أو إسبانيا[8].

3– الدكتور التازي عبد الهادي، كتاب جامع القرويين المجسد والجامعة بمدينة فاس موسوعة لتاريخها المعماري والفكري، مجلة "دعوة الحق" العدد السابع، السنة الثالثة أبريل 1960 – مجلة "مجمع اللغة العربية" طبعة بيروت بدمشق لبنان سنة 1972 المجلد 36 جزء 2 ص 212.

4 –La voix : Cataloques des Monnaies - Musulmane de Bibliothèque Nationale, page 69, n° 921.

5– التازي – مجلة "التربية الوطنية" العدد الرابع سنة 1960 ص 19 – 20.

6– مجلة الجمعية المصرية للدراسات التاريخية العدد الثامن 1959 ص 244 – 245.

7– التازي – مجلة الفكر – السنة الخامسة عدد 6 مارس 1960.

8– التازي – مجلة معهد الدراسات الإسلامية في مدريد – المجلد السادس 1958 ص 277 – 278.

ففي الناس من أوصى بنبذ أمر هذه اللوحة لأنها في نظره تناهض "تواترا" متوارثا عبر الأجيال، وفيهم من رجح أن تكون اللوحة قد نقلت من مكان آخر وغرزت هنا... وأن ذلك تم على عهد الوطاسيين في الفترة القصيرة التي رجع فيها النفوذ بشرفاء الأدارسة بواسطة محمد بن علي الجوطي.

وفي الناس طائفة ثالثة يصممون على أن يأخذوا بما ورد في مدلول اللوحة نظرا أولا لكونها "وثيقة معاصرة"، وثانيا لما أثر من هفوات عن القرطاس، وثالثا لكون بعض الرحالة والمؤرخين القدامى من أمثال اليعقوبي والبكري وابن عذاري تحدثوا عن مدينة فاس بمسجديها العتيقين لكنهم لم يعرجوا على تأسيس القرويين على النحو الذي عرف في القرطاس...

فماذا تكون الحقيقة؟

أما "التوصية" بنبذ اللوحة فأمر سلبي لا يسمح به المؤرخ النزيه، وأما عن أمر نقل اللوحة وخاصة أيام الوطاسيين، فالتاريخ ظل صامتا صمتا مطلقا عن مؤسسات داود ابن إدريس في مناطق نفوذه فلا يمكن أن ندعي إذن أنه أسس هناك "مسجدا" وأن "اللوحة" التي كانت على ذلك المسجد هي التي نقلت! لكن الأبعد هو القول بأن عملية النقل تمت على عهد الوطاسيين مع أنها وجدت تحت الجبس الذي ضرب –منذ نهاية دولة المرابطين– على سائر جهات البلاط الأوسط، ولم يتحدث التاريخ أبدا عن إزاحة "التبليط".

ونظرا لأننا لم نعثر لحد الآن على نص تاريخي آخر يعزز بناء الإمام داود لجامع القرويين، ونظرا لكون النقش المشار إليه لم ينص بصفة واضحة على لفظ القرويين، أقول مراعاة لكل ذلك نجد أنفسنا بين احتمالين:

فإما أن يكون ابتداء البناء كان في رمضان 245 في أيام يحيى ولكنه استمر إلى سنة 263 أيام داود بن إدريس وتكون فاطمة استغرقت في صومها كل هذه المدة، ويؤيد هذا الرأي أولا ما استهدفت له البلاد من حالة الجفاف في هذه الأثناء، وثانيا ما تعهدت به فاطمة والتزمت من استخراج كل موارد البناء من نفس البقعة تحريا، وثالثا أن المصادر التاريخية إنما تحدثت عن ابتداء البناء ولم تتحدث عن انتهائه، فكل هذا مما يبرر استغراق كل هذه المدة.

وإما أن يكون البناء تم في نفس السنة نظرا لكون الجامع – ومساحته لاتصل إلى ألف متر مربع – لا يمكن التهاون في أمر بنائه طيلة ثمانية عشر عاما... ويفسر وجود داود بن

إدريس هنا بأنه في الفترة التي كان "يدافع" فيه يحيى تمكن في بعض الظروف من الاستيلاء على عدوة القرويين وتخليدا لهذا الفوز الذي حصل عليه في عدوة القرويين ورغبة في أن تعرف الأجيال القادمة أنه "أي داود" كان "هنا" فقد شاء أن ينقش اسمه كنصب تذكاري في هذه الجهة، ولما كان الملوك، والرؤساء يختارون ابرز مكان وأشهره لتخليد أسمائهم، وكان أقدس مكان وأكرمه هو جامع القرويين فقد كان هو بالذات المركز المختار، ولما كان أفضل مكان في المسجد وأظهره هو المحراب فقد تم ضرب هذه الارزة عليه حتى تظل أمام المتعبدين والقاصدين، بقي أن يتساءل عن اختفاء اسم فاطمة من اللوحة مع أن النصوص المذكورة تتضافر على أنها المؤسسة.

إننا نعلم أن التقاليد القديمة لا تلح في ذكر أسماء النساء على المباني لاسيما مع ما أثر من أن الشعوب قد تقوم بالمشاريع وترجو إلى الملوك تبنيها تقديرا لهم وتكريما لمقامهم.

لمحة عن جامعة القرويين: الهدف، الالتحاق بها، طلبتها، تقاليدها، نظامها، مكتبتها، الإجازات العلمية:

كان **الهدف** الديني هو الهدف الرئيسي من الدراسة بجامع القرويين عند إنشائه، ولكن مع اتساع العمران بالمغرب وكثرة الوافدين إليها، تطورت الدراسة وتحول الجامع إلى جامعة وشملت علوما أخرى تهدف إلى أغراض سياسية واقتصادية واجتماعية، فكانت هناك دراسة الفلسفة والطب والصيدلة والطبيعة والفلك والهندسة. كما حظيت الموسيقى باهتمام علماء القرويين، فاحتلت مركزا بين موادها، وكانت يتم تناولها من قبل علماء مشهورين كتناولهم لعلوم النحو والأدب.

تميزت جامعة القرويين منذ نشأتها **بشروط وضعتها للحاق الطلبة بها**، فكان يجب على الطالب أن ينهي دراسته بأحد الكتاتيب حتى يلم بمبادئ الدين وقواعد اللغة العربية، ثم يستظهر القرآن الكريم ويتعلم مبادئ العلوم العامة حتى يتمكن من الالتحاق بالجامعة. وكان الطلاب يسكنون في مبان ملحقة بجامع القرويين، وكل مبنى من هذه المباني يتسع لعدد من الطلبة يتراوح ما بين ستين ومائة وخمسين طالبا، ويزود الطالب يوميا بوجبة من الخبز وبمياه الشرب، ويشاركه في غرفته طالب أو أكثر من زملائه .

وكان من **تقاليد الجامعة** عادة تنصيب **سلطان للطلبة** ربيع كل عام، فيمتطي فيه الجواد الأميري وترفع فوق رأسه مظلة السلاطين، ويأمر بتأليف حكومة له من بين زملائه، ويزوره عاهل البلاد في يوم مشهود من أيام سلطنته التي تدوم زهاء الأسبوع. وفي خلال أسبوع هذه السلطنة ينصرف الطلاب إلى المرح واللهو، ويعيشون حياة بعيدة عن الجامعة، فيها متعة النفس وصفاء الحديث، وكان يشاركهم في هذا أحيانا أساتذتهم من الجامعة .

كما كان هنالك احتفالات جامعية يساهم فيها جميع الطلبة الفاسيون وغيرهم على السواء فإذا ختم أحد الأساتذة شرح مختصر خليل كان الطلبة يرفعونه على أكتافهم ويحملونه بانتصار إلى القاعة الكبرى حيث يهنئه الناس .

عرفت جامعة القرويين **حلقات العلم** منذ أيامها الأولى، حيث كان يتحلق الطلاب حول العلماء والفقهاء يتلقون منهم ما يملون عليهم. ومنذ عام 651هـ/1253 م. أخذت الجامعة بنظام الكراسي العلمية، فأنشأ أول كرسي للأستاذية لدروس التفسير، ثم توالى إنشاء الكراسي العلمية منذ ذلك الوقت، وخصص كل منها لمادة من مواد الدراسة، فكان هناك كرسي للفقه وآخر للحديث وثالث للنحو. وقد بلغ عدد الكراسي العلمية مع بداية القرن العاشر الهجري ثمانية عشر كرسيا. ومن العلماء المشهورين في عصرهم ممن شغلوا هذه الكراسي كان المقري، وابن الفحام، وابن الصفار، والتلمساني، وابن الإمام وغيرهم. وكانت هذه الكراسي لا يحصل عليها من العلماء إلا من نال شهادة العديد من العلماء وإبلاغ السلطان به وموافقته عليه، ومنذئذ يصبح صاحب الكرسي من جملة الهيئة التعليمية للجامعة التي كانت منقسمة إلى خمس طبقات ترتيبية، وللانتقال من إحداهما إلى الأخرى كانت الطريقة هي ذاتها المتبعة للإحراز على منصب أستاذ رسمي.

وقد **تميز أساتذة القرويين** بلباس خاص بهم، يعتمد على الكساء وعلى البرنس. وكانت ملابسهم من اللون الأبيض. وفي عهد المرابطين والموحدين، خص علماء القرويين بالعطايا، أما في عهد بني مرين ومن أتى من بعدهم من الوطاسيين والسعديين فقد خص العلماء بالمرتبات الكبيرة المنتظمة، وأغدقت عليهم العطايا في مختلف المناسبات، كما أوقفت الأوقاف والأحباس لتغطية مصارف المؤذنين والأئمة والخطباء والطلبة. ورغم أن الأجور قد أثارت جدلا بين الفقهاء في ذلك الوقت باعتبار أن هذا لا يليق برجال العلم، إلا أن ذلك الجدل ما لبث أن وجد تبريرا بأن أموال الأوقاف تضمن الاستقرار للعلماء بعيدا عن التقلبات السياسية التي يمكن أن تمر بها البلاد. .

وبمرور الوقت أصبحت الأجور التي يحصل عليها علماء فاس زهيدة جدا ذلك لأنها حددت منذ عهد طويل ولم تتغير رغم الانخفاض المتتالى للعملة، بالإضافة إلى ما كان يقدم لهم

كل سنة من هدايا عينية ككسوة كاملة بمناسبة عيد كبير، وكمية متفاوتة من القمح حسب الطبقة التي ينتمي إليها الأستاذ .

وأخيرا كان الأساتذة يسكنون في عقارات حبسية أو إن لم تكن هناك دار شاغرة كانوا يتقاضون تعويضا عن السكن، وبذلك كان أساتذة القرويين يرون أن حياتهم المادية مضمونة تقريبا بمجرد ما يصبحون أساتذة كرسي، كما أن العديد منهم كانوا ينتمون إلى الطبقة الفاسية الميسورة، ويملكون عقارات في المدينة، وكانت الفوائد المنوطة بوظيفتهم تعطى لهم مدى الحياة، لأن مبدأ التقاعد لم يكن معروفا، فكان الأساتذة الطاعنون في السن الذين لم يعودوا يستطيعون القيام بالتدريس يستقرون في منزلهم محتفظين براتبهم .

نظام الجامعة:

بدأ التعليم في جامعة القرويين منظما، إذ لم يكن يسمح لأي طالب بالالتحاق بالجامعة إلا بعد أن يجتاز شروطا معينة تبين اجتيازه لمراحل التعليم الأولى في الكتاتيب. ولكن لم يكن هناك تقيد بسن محددة لالتحاق الطلاب بالجامعة. كما لم تكن هناك مدة دراسة محددة بسنوات معينة، وإنما تخضع لاستعداد الطالب ومقدرته ورغبته في التعمق والدراسة. أما إذا أراد الطالب الانتقال إلى مستوى أعلى فكان عليه أن يجتاز امتحانا ليتأكد من مقدرته في الاستيعاب. أما عن المناهج الدراسية فكانت حرة وتترك إلى اختيار الأساتذة. وظل الحال كذلك حتى عام 1203هـ/1789م. عندما فكر السلطان محمد الثالث في سن نظام دراسي معين للجامعة فأصدر مرسوما يطلب فيه من شيخ القرويين تحديد مواد الدراسة والكتب التي يجب أن تدرس.

أما عن الهيكل الإداري للجامعة فقد كانت رئاسة الجامعة تسند إلى **قاضي** مدينة فاس الذي يمنح الأساتذة الكراسي العلمية بعد الرجوع للسلطان ويراقب ناظر الأوقاف ويصدق على الميزانية، وإليه يرجع الرأي الأخير في الإصلاحات التي تدخل على مباني المسجد وتسمية الأئمة والخطباء والمدرسين ورجال الحسبة. ويلي هذه الوظيفة وظيفة **القيم**، وهي تقابل وظيفة رئيس القسم اليوم، فكان هناك قيم على كتب الفنون، وقيم على كتب التفسير، أو الأدب وغير ذلك .

ولقد عرفت جامعة القرويين ابتداء من عهد بني مرين عددا من التقاليد فكان هناك نظام العطلة الدراسية الأسبوعية يومي الخميس والجمعة، ثم العطلة السنوية وكانت القرويين تعطل أربعين يوما في الصيف "السمائم"، هذا بجانب شهر رمضان ويوم عاشوراء وأسبوع عيد الفطر

وعيد الأضحى، ويوم المولد النبوي الشريف الذي يجرى له احتفال كبير بالجامعة. ومن هذه التقاليد أيضا يوم الختمة وهو اليوم الذي يختتم فيه الشيخ المادة أو الكتاب الذي بدأ فيه منذ زمان.

مكتبة جامعة القرويين:

تميزت جامعة القرويين بمكتبتها التي أنشئت مع بداية الجامعة. فوجه أمراء المرابطين والموحدين عنايتهم لتزويد المكتبة بالكثير من الكتب، ولم يكتمل عهد بني مرين حتى كانت مكتبة القرويين تضم العدد الوافر من المصاحف من مختلف الأحجام والأشكال ما بين مكتوب على رق الغزال، ومكتوب على الكاغد؛ الشاطبي القديم .

وكانت هذه المكتبة غنية جدا بالكتب وقد ترددت شيئا فشيئا إلى حالة مؤلمة من التلف والإهمال إذ كانت الكتب مكدسة بعضها فوق بعض بغير نظام معرضة بسهولة للأرضة، ونظرا لانعدام أي فهرس أو سجل للاستعارة فإن الكثير من المستعيرين غفلوا عن رد ما استعاروه من الكتب، بحيث كان يقدر في بداية القرن العشرين عدد الكتب بحوالي (2000) منها (1600) مخطوط معظمها ضئيل القيمة، ونظرا لاختفاء عدد كبير من الكتب فقد منعت الاستعارة وأصبح على الطلبة أن يطالعوا الكتب داخل المكتبة .

ومع ذلك فقد حوت المكتبة كتبا في مختلف الفنون والعلوم. كما كانت هناك ثلاث وثلاثون مكتبة فرعية، تزخر بالعديد من الكتب يرجع إليها المدرسون والطلاب في البحث والدراسة.

الإجازات العلمية:

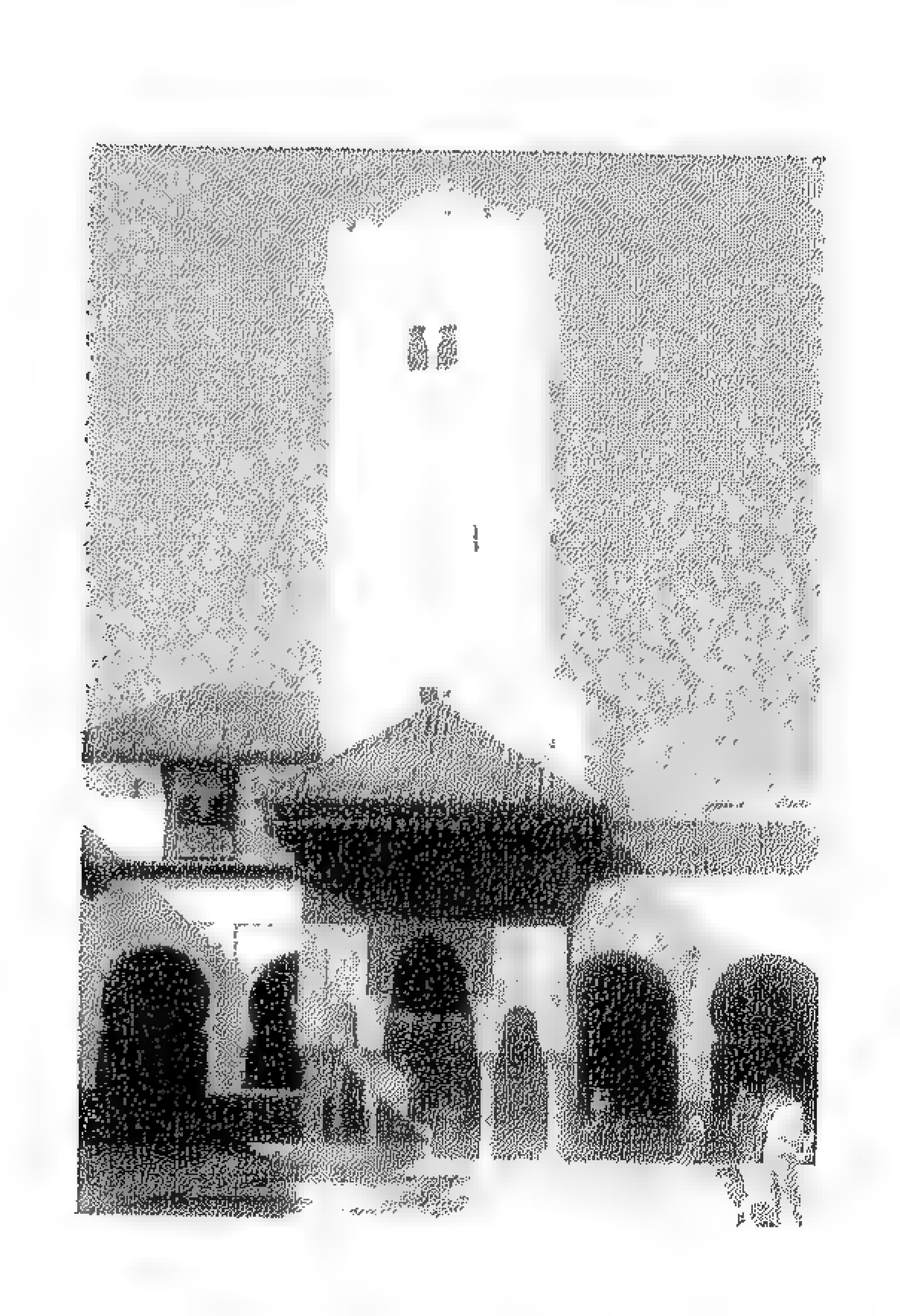
كان الأسلوب المتبع للتخرج في جامعة القرويين منذ نشأتها أن كل طالب تلقى العلم زمنا طويلا، وآنس في نفسه القدرة على التصدر للعلم أن يعلن ذلك بين زملائه وشيوخه، فتعقد له حلقة من العلماء، ويجلس الطالب في صدرها، ويعرض لجدل العلماء ومناقشتهم، فيحصل بموجبها على إجازة تجيز له رواية الحديث أو تدريس كتاب أو الإفتاء من شيخه الذي تلقى عليه العلم. لقد ظل نظام الإجازة هذا معمولا به بالقرويين حتى أوائل القرن الرابع عشر الهجري، حيث استبدل بنظام الامتحانات الحالية.

وكانت الجامعة تعتمد في دراستها في فتراتها الأولى على مؤلفات علماء المشرق، حتى بدأ علماء المغرب يعتمدون إلى حد كبير على مؤلفاتهم العلمية. وقد تميز عهد الموحدين بظهور كتب تناولت مختلف العلوم والفنون. فدرست من مؤلفات المغاربة في تفسير القرآن لعبد الجليل المقري، وفي التصوف بستان العابدين، وفي الجغرافيا نزهة المشتاق وفي الرياضيات جامع المبادئ والغايات في علم الميقات لأبي الحسن المراكشي .

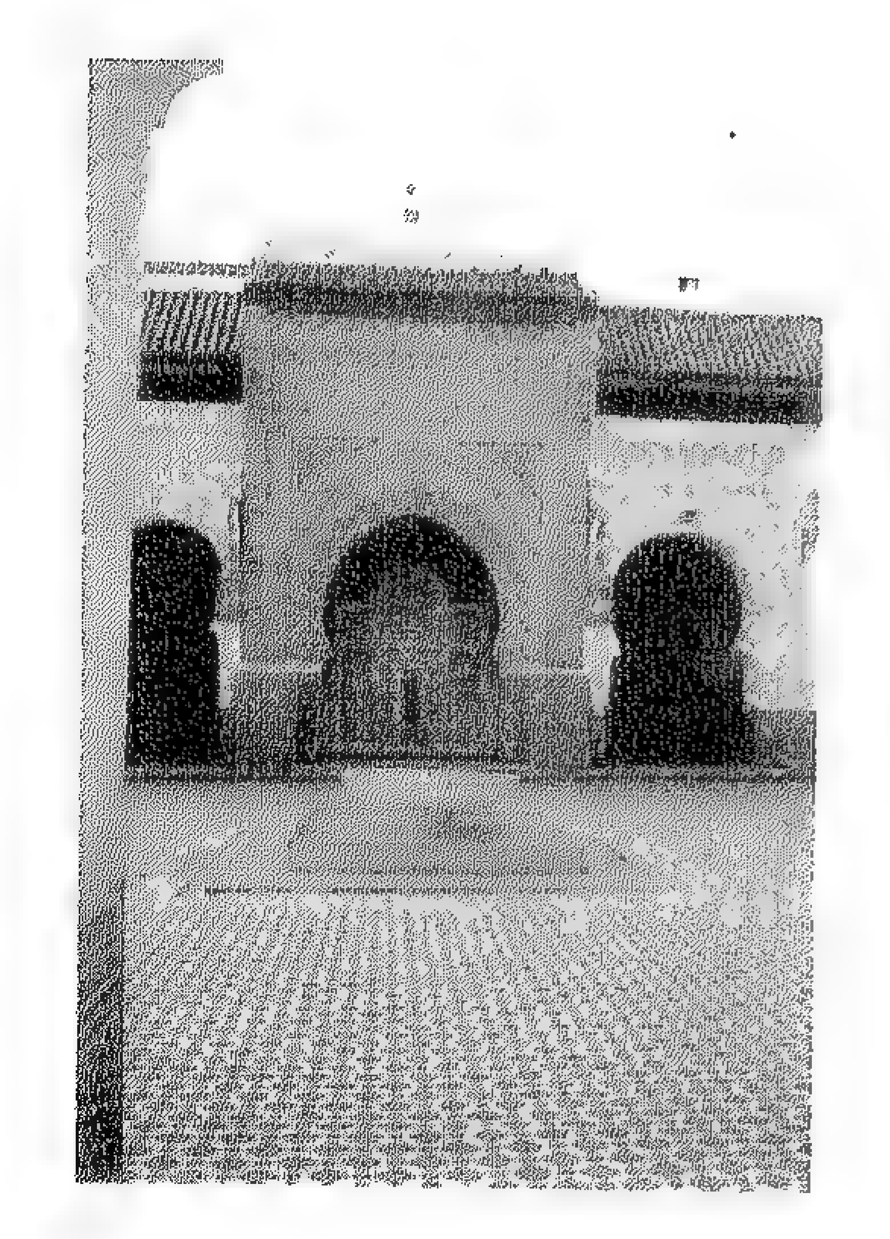
وفي السنوات الأولى من القرن العشرين كانت تدرس في جامعة القرويين مواد عدة منها الحديث وكان يدرس كل يوم في شهر رجب وشعبان ورمضان، وكانت الكتب التي تدرس هي صحيح البخاري ومسلم وموطأ مالك وشمائل الترمذي، وأصول الفقه وكانت هذه المادة تدرس في العشي وكانت تعتبر مادة ثانوية، ومادة الفقه وكانت تدرس في الصباح وكانت أهم الكتب التي تدرس مختصر الشيخ خليل ورسالة ابن أبي زيد القيرواني والمرشد المعين لابن عاشر وتحفة ابن عاصم، وكذلك النحو وكان يلقن في المساء، وكان يدرس من الآجرومية لابن آجروم والألفية لابن مالك، وكذلك مواد البيان والمنطق والحساب والتوحيد والقضاء والأحكام والأدب، وكان يدرس بها أيضا علوم أخرى لكنها اضمحلت شيئا فشيئا منها التفسير والتنجيم والتصوف والتصريف واللغة.

القرويين: من الجامع إلى الجامعة:

الصومعة المربعة



مكان للوضوء



إذا كانت أول مدرسة اختُطت بالشمال الإفريقي قد نشأت في القيروان بتونس، فقد تبع ذلك بعد قليل بناء أكبر جامع بشمال إفريقيا، وهو جامع القرويين الذي يرجع بناؤه إلى عهد أول دولة إسلامية أسست بالمغرب، وهي مملكة الأدارسة التي اتخذت مدينة فاس عاصمة لها. ويذكر المؤرخون أن هذه المدينة التاريخية قد عرفت في ذلك العهد نزوح وهجرة بضعة آلاف من عرب القيروان، حيث عمل أميرها على إسكانهم بالضفة الشرقية من وادي فاس، وسماها عدوة القيروانيين، ولكثرة الاستعمال خُففت فأصبحت القرويين، لكن الحاجة سرعان ما دفعت إلى ضرورة بناء مسجد كبير يقيم فيه سكان الحي الناشئ صلواتهم ، فقيض الله لذلك امرأة من نساء القيروانين المهاجرين هي السيدة فاطمة الفهرية (أم البنين)، حيث وهبت كل ما ورثته من أموال في بناء المسجد الذي تم الشروع فيه عام 245 هـ، وكان كلما كثر عدد سكان عدوة القرويين سارع المحسنون من أتقياء القوم إلى توسيع المسجد والإنفاق في سبيل إصلاحه وترميمه. وبعد نحو قرن من تأسيسه أصبح جامع القرويين في حاجة إلى توسعة كبرى، فأضاف الأمراء الزناتيون بإسهام من الأمويين الأندلسيين نحوًا من ثلاثة آلاف متر مربع إلى المسجد القديم، ثم زاد المرابطون فيما بعد مساحة أخرى، فأصبح بذلك يتسع للآلاف من المصلين[9].

واستمرت الأنشطة الدينية تقام بجامع القرويين منذ نشأته، وكلما تطورت مدينة فاس عمرانيا انصبت جهود المؤمنين والمحسنين فيها على الاهتمام بالمسجد الجامع توسعة وصيانة وحفظا. فصار عبر التاريخ المغربي قطبًا ومنارةً لمساجد الدولة المغربية، نظراً لإشعاعه الروحي المتواصل وتوجيهه للحياة الدينية والعلمية عبر أرجاء المغرب.

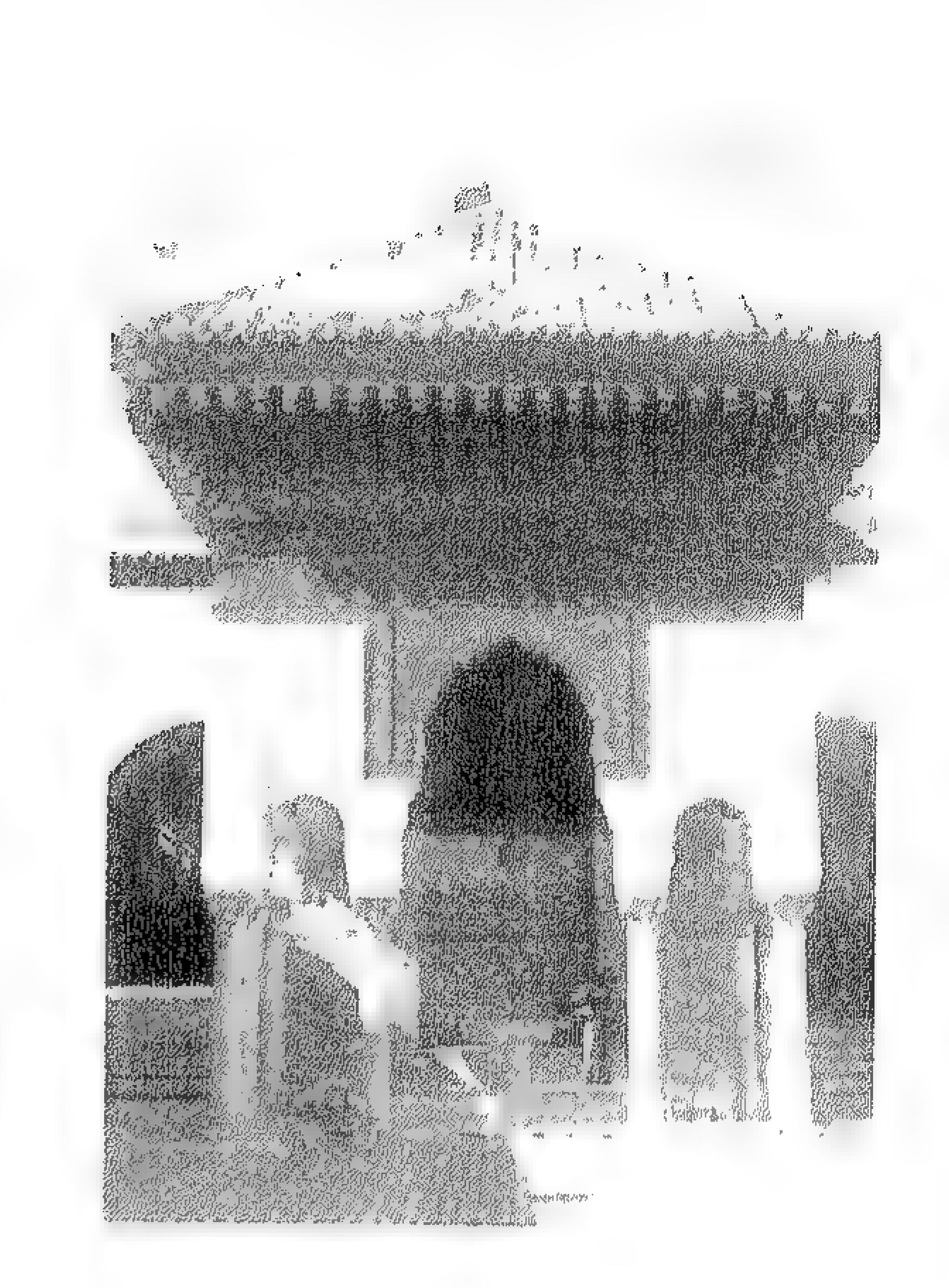
وتعتبر الصومعة المربعة التي لا تزال قائمة إلى اليوم من بناء أحد الأمراء الزناتيين الذي كان عاملا لعبد الرحمن الناصر الأموي الأندلسي على بلاد العدوة ، وهي تعد بحق أقدم منارة مربعة ثبتت في الغرب الإسلامي .

وفي عهد المرابطين أضيفت زيادات معمارية وعمرانية أخرى مع الاحتفاظ بالخصائص العامة لما كان عليه الجامع، غير أنه إذا كان الطابع العام للجامع قبل العصر المرابطي يتسم بالبساطة في المعمار والبناء فإنه في عهد المرابطين كان هنالك إبداع كبير في صنع القباب ووضع الأقواس وكتابة الخطوط والكلمات المنقوشة من آيات قرآنية وعبارات دعائية وغير

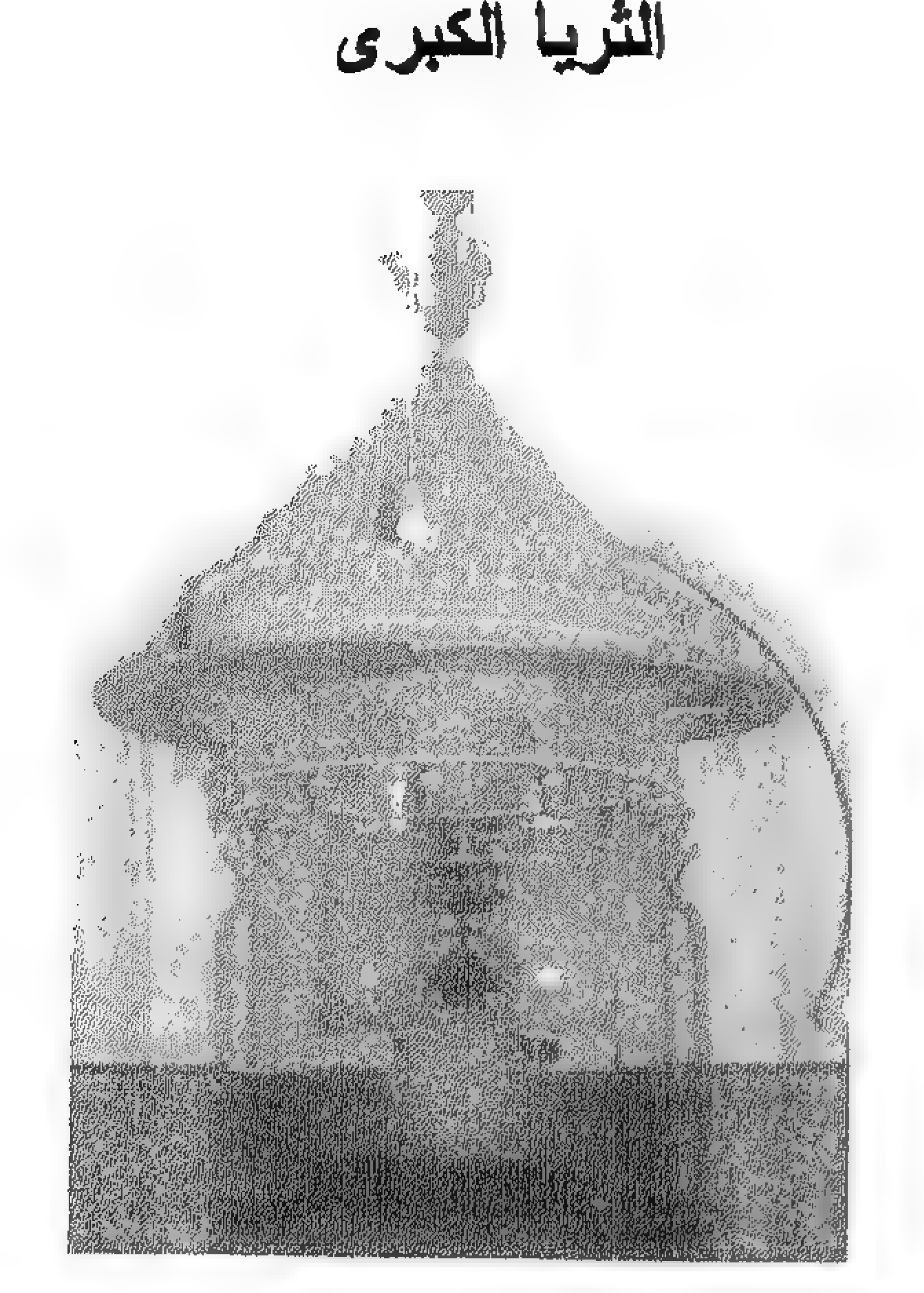
9- ابن أبي زرع : الأنيس المطرب في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس- الرباط 1973. ص: 34-38.

ذلك، ولعل أبرز ما خلده المرابطون من مآثر هو صنع المنبر الذي لا يزال قائما إلى اليوم، ويعد تحفة نادرة من التحف الإسلامية العريقة. وفي عهد الموحدين تم نصب الثريا الكبرى التي لا تزال إلى اليوم شاهدة على الحضارة الموحدية وروعة الفن والإبداع المغربي.

مكان للوضوء



الثريا الكبرى



وللقرويين سبعة عشر بابا وجناحان يتقابلان في طرفي الصحن الذي يتوسط فضاء المسجد الداخلي ويحتوي كل جناح على مكان للوضوء من المرمر، وهو تصميم معماري مأخوذ من تصميم صحن الأسد بغرناطة.

إذا كانت القرويين قد عرفت زيادات معمارية وعمرانية اتّسمت بطابع التوسعة في البناء خلال القرون الأولى، فإنها ابتداء من عهد المرابطين والموحدين قد طالها الاهتمام على مستوى التأثيث والزيادة في المرافق الضرورية، فازدانت عبر العصور اللاحقة بمختلف أنواع وأشكال الثريات والساعات الشمسية والرملية، وابتهج فناؤها بالخصة الحسناء[10]، واكتسبت غرفا ومرافق جديدة مثل غرفة المؤقتين[11] ومقصورة القاضي والمحراب الواسع وخزانة الكتب والمصاحف وغير ذلك. وقد زُين كل ذلك بروائع الفن المزدوج الأندلسي–المغربي الذي امتزجت فيه رقة ورشاقة الفن الأندلسي وهيبة وروعة الحِرَف المغربية .

---

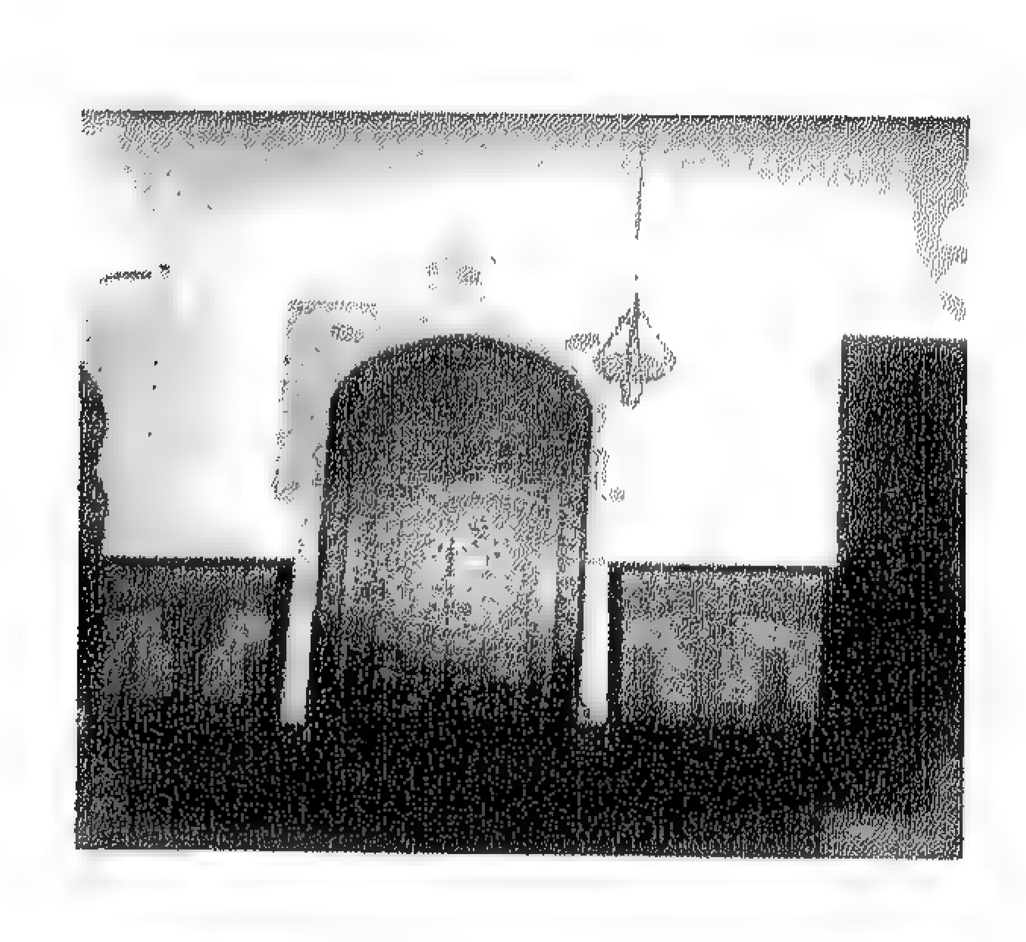
[10]– الخصة في الاصطلاح المغربي تعني مجموع شيئين اثنين : الأنبوب الذي يتفجر منه الماء نحو الأعلى (النافورة) والحوض الذي يتجمع فيه الماء.

[11]– نسبة إلى علم التوقيت.

ومهما اختلف الباحثون في بداية تاريخ التعليم في جامعة القرويين فإن طبيعة تأسيسها كجامع كانت تفرض على العلماء أن يلقنوا فيه المعرفة الإسلامية والعلوم الشرعية، ولهذا وجدوا فيه أكبر منتدى تزدهر فيه حرية التفكير والتعبير.

وبفضل الاهتمام البالغ الذي كان يحظى به جامع القرويين فإنه ما لبث أثناء عصور متتالية وعهود متتابعة أن استجمع عناصر النهضة ومقومات التطور، حيث توفرت له خصائص ومميزات الجامعة، وتحققت له شخصيتها العلمية والمعنوية، وذلك في إطار استقدام الأساتذة واستقبال الطلبة، وتقرير المواد والعلوم المدروسة، وتسليم الإجازات وتوفير الكراسي العلمية المتخصصة وتكوين خزانة علمية متنوعة التخصصات، كل ذلك أضفى على الجامع صفة الجامعة وأسبغ عليه طابع المؤسسة الجامعية في المفهوم الحديث.

خزانة الكتب والمصاحف



نوع من الثريا والساعات الشمسية



- خزانة القرويين بفاس، هي إحدى أقدم الخزانات التراثية المغربية. تأسست سنة 750 هـ تحت إشراف السلطان أبي عنان المريني. وقد عرفت على مر الزمان عدة عمليات التهيئة والترميم والإصلاح في عهد الملوك العلويين، واستمر ذلك إلى عهد الملك محمد السادس.

وقد حافظت خزانة القرويين على دورها البارز في ميادين العلم والمعرفـة، لفائدة الباحثين والطلبة. وقد تم إغناء رصيدها الوثائقي من هبات أوقاف السلاطين والأمراء، والعلماء الذين زودوها بكتب نادرة ونفيسة.

وهكذا لم تمض فترة طويلة على إنشاء الجامع ووضع منبر خطبة الجمعة به حتى رافق ذلك بروز حلقات ومجالس علمية محدودة تلقى من خلالها دروس علمية في شتى العلوم والفنون، يلقيها نخبة من علماء مدينة فاس في الصباح والمساء وبين العشاءين، الأمر

الذي حول الجامع من مسجد تقام فيه الصلوات إلى مركز علمي ذي إشعاع ما فتئ يتعاظم ويكبر لينافس بذلك المراكز العلمية الذائعة الصيت بقرطبة وبغداد وغيرهما، ومع مرور الزمن وتعاقب دول المغرب أصبحت أهمية ومكانة الجامع تظهر بوضوح وأضحى الاهتمام به يقوى ويشتد، فكانت كل دولة تسعى إلى الإسهام في تشييد صروحه وترميم جوانبه وتوسيع بناياته وتوفير كل الوسائل الضرورية التي تتيح الفرصة لأكبر عدد من رواده من تلقي دروس العلم والمعرفة.

وقد عرف العهد المرابطي نزوح كثير من العلماء وطلبة العلم إلى مدينة فاس بعد أن ذاع أمر القرويين بها واشتهرت فاس كعاصمة علمية تُشَد إليها الرحلة لطلب العلم من داخل المغرب وخارجه، ويمكن القول بأن القرويين قد انتقلت ابتداء من العصر المرابطي من مرحلة الجامع إلى مرحلة البداية الجامعية لأن المرحلة الجامعية المكتملة حسب النصوص المتوفرة لم تتضح بصورة كاملة سوى في العصر المريني عندما عُزِّز جامع القرويين بمجموعة من المدارس والكراسي العلمية والخزانات، فأصبحت فاس بذلك قبلة أنظار الملوك والأمراء ومهبط السفراء والكتاب ومحط كبار العلماء والأدباء ومأوى أرباب النبوغ من أهلها ومن الآفاق.

لقد كان لبني مرين وللبيوتات والمدارس التي عاش العلم فيها زمنا طويلا فضل وأثر في ازدهار الحركة العلمية واكتساب الشهرة، حتى بات من السنن المعتادة عند الناس ولو درسوا بجامعة ابن يوسف بمراكش، أن يرحلوا إلى فاس لالتقاط ما تبقى من جواهر العلوم والفنون، فقد كانت أول المطاف وآخره لكل من تاقت نفسه إلى المزيد من العلم أو التعمق في النظر.

وذكر ابن مرزوق أن "إنشاء المدارس لم يكن معروفا في المغرب إلى حين بناء مدرسة الحلفائيين بفاس وهي المعروفة اليوم بمدرسة الصفارين وذلك عام 670 هـ"[12]، ثم تبع ذلك إنشاء مدارس أخرى من أجل إيواء طلاب العلوم وتوفير شروط الراحة والتفرغ لطلب العلم، وتابع الملوك الذين تعاقبوا على حكم المغرب هذه المسيرة العمرانية والعلمية بتوسيع ما ورثوه من منجزات الملوك السابقين، ومن أبرز المدارس المشهورة بفاس بالإضافة إلى مدرسة الصفارين.

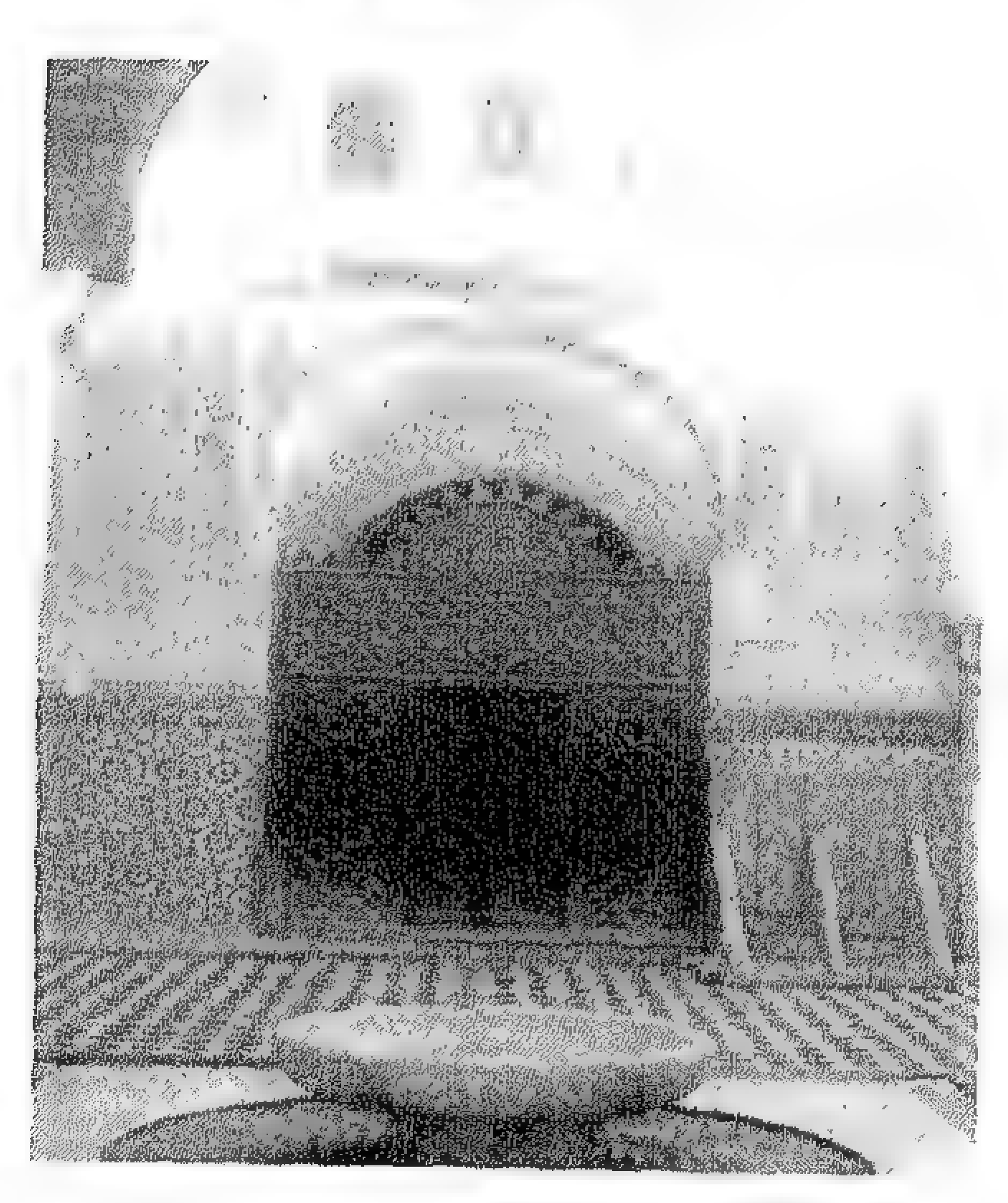
---

[12]– ابن مرزوق: المسند الصحيح الحسن في مآثر مولانا أبي الحسن ، تح ماريا خيسوس بيغيرا– الجزائر 1981. ص 405.

- مدرسة فاس الجديد التي بناها أبو سعيد المريني عام 720 هـ وجددها السلطان محمد بن عبد الله العلوي عام 1204هـ.
- مدرسة العطارين قرب جامع القرويين بناها أبو الحسن المريني عام 723هـ.
- مدرسة الصهريج وكانت تسمى بالمدرسة الكبرى كما في رخامة التحبيس التي لا تزال باقية إلى يومنا هذا، أسسها أبو الحسن المريني عام 721 هـ وتوجد غرب جامع الأندلس بفاس.
- مدرسة السبعيين وتعرف بالمدرسة الصغرى تمييزا لها عن المدرسة الكبرى (مدرسة الصهريج) كانت تدرس بها القراءات السبع، أسسها أبو الحسن المريني عام 721 هـ[13].
- المدرسة المصباحية وقد شيدها أيضا أبو الحسن المريني عام 745 هـ وتحمل اسم أول أساتذتها وهو أبو الضياء مصباح بن عبد الله اليالصوتي (ت 750 هـ).
- المدرسة البوعنانية، بنيت في عهد أبي عنان المريني عام 757 هـ.
- مدرسة الشراطين، بناها السلطان العلوي المولى الرشيد وأكمل بناءها المولى إسماعيل.



مدرسة العطارين



وهذه المدارس بنيت في الغالب على نمط واحد لتؤدي الوظيفة التي أنشئت من أجلها وهي إيواء الطلبة وتوفير فضاء للدراسة والتعلم، فهي تتوفر في الغالب على صحن يشغل

13- حرف اسمها اليوم من "السبعيين" إلى "السباعيين" كما هو معروف عند السكان المجاورين لها ،وقد تحدث عن هذه المدرسة التي تميزت عن غيرها بكونها متخصصة في القراءات السبع المستشرق الفرنسي ألفرديل A. AlBel في مقال له بالجريدة الأسيوية Journal asiatique (1917) p258 .

وسطه صهريج أو نافورة، وتقوم في جوانبه الثلاثة سلسلة من الغرف، وفي الجانب الرابع مسجد (كما في مدرسة العطارين) أو حجرة للصلاة، وقد تضاف طوابق عليا للسكن أيضا (كما في المصباحية)، أو يلحق بالمدرسة كتاب لتعليم الصبيان، وقد تتوفر بعض المدارس على منارة للآذان (صومعة) كما كان الشأن في مدارس الصفارين وفاس الجديد والبوعنانية.

وفضلا عن كل ذلك كانت جميع هذه المدارس تشتمل على خزانة علمية موضوعة لعموم المطالعين من الطلبة. وذكر الأستاذ محمد العابد الفاسي[14] أنه كان لأكثر تلك المدارس زيادة على وظائفها الدينية والتعليمية وظيفة مؤقت، وأستاذ مقرئ.

ومن أشهر الخزانات العلمية التي كانت بمدينة فاس خزانة أبي يوسف المريني، وخزانة أبي عنان المريني وخزانة أحمد المنصور الذهبي السعدي، فضلا عن أكثر من ثلاثين خزانة صغيرة ظلّت تؤدي وظيفتها لمدة قرون من الزمن.

أما خزانة القرويين فتعتبر من أهم الخزانات العامة بالمغرب بل في العالم كله ، وقد أسسها السلطان أبو عنان المريني حين بنى لها مقرا بالناحية الشرقية من صحن جامع القرويين عام 750 هـ ووقف عليها كتبا شتى في مختلف العلوم والفنون وظلت على حالها إلى أن نقلها أحمد المنصور السعدي في أواخر القرن العاشر الهجري إلى البناية التي توجد فيها الآن ببابها الرئيسية المتصلة بساحة الصفارين.

الباب الرئيسية

14– محمد العابد الفاسي :الخزانة العلمية بالمغرب ص 17.

ومن المؤكد أن جامعة القرويين ما كان لها أن تواكب المد المعرفي المتنوع وتحقق المستوى العلمي المنشود الذي عرفته عبر القرون إلا بالرافد الأساسي الذي تمثله خزانة علمية غنية بالكتب والمخطوطات. وقد حرص ملوك المغرب وأمراؤه على تزويد خزانة القرويين بنفائس المخطوطات وأجروا جرايات خاصة على صيانتها وحفظها، كما عمدوا إلى استنساخ نفائس المخطوطات الموجودة بها قصد إهدائها إلى إخوانهم ملوك وحكام دول المشرق العربي.

ومن أبرز نفائس خزانة القرويين أجزاء من موطأ مالك (ت 179هـ) كتبت لخزانة علي بن يوسف بن تاشفين المرابطي على رق الغزال، وكتاب سيرة ابن إسحاق (ت 151هـ) كتب سنة 270هـ وهو أقدم ما يوجد بالخزانة، والمصحف الأكبر الذي حبسه السلطان أحمد المنصور الذهبي على الخزانة عند تدشينها عام 1011 هـ كما يوجد بها كتاب العبر لابن خلدون (ت 808 هـ) الذي ألف باسم السلطان أبي فارس المريني واهدي إلى خزانة القرويين في صفر من عام 799 هـ[15].

وكانت القرويين بجامعها وعلمائها وطلبتها وخزانتها والمدارس المتفرعة عنها والتابعة لها تستفيد من الأوقاف، ويعتبر ذلك أكبر دعامة لاستمرار الجامعة وإشعاعها العلمي، فأموال الأوقاف كانت تصرف للطلبة في الإيواء والمأكل، وكانت تسلم منها رواتب الأساتذة والعلماء، وتجهز بها المدارس العلمية، وما تحتاج إليه الخزانات من الكتب والمؤلفات، وكان يسند إلى مفتي القرويين الذي كان له مقر خاص برحاب الجامعة جانب مهم من الأوقاف يصرفه باجتهاده في المشاريع الاحسانية التي تظهر له من خلال احتكاكه بمشاكل الناس.

وهكذا ظلت جامعة القرويين تقوم بواجبها أحسن قيام وبشكل تلقائي واستمر إشعاعها مشعا على العالم الإسلامي وكوّنت بذلك أجيالا من العلماء الفطاحل الذين طبقت شهرتهم الآفاق لمدة قرون من الزمن، ولا يزال عطاؤهم وإنتاجهم العلمي والفكري قائما ينهل منه الباحثون جيلا بعد جيل.

وبالرغم مما أحدثته الحماية الفرنسية من إحكام قبضتها على القرويين وأساتذتها والتحكم في إدارة الجامعة وتسييرها، بعد أن استشعرت الدور الخطير الذي تقوم به القرويين التي أطلق عليها الجنرال الفرنسي ليوطي وقتئذ اسم "البيت المظلم" في سبيل استنهاض همة الشعب وإرادته ضد المستعمر، فإنه ما إن استرد المغرب استقلاله حتى عادت للقرويين

---

[15]– د عبد الهادي التازي: جامع القرويين المسجد والجامعة موسوعة لتاريخها الفكري والمعماري، الطبعة الأولى ببيروت 1972 (451/2).

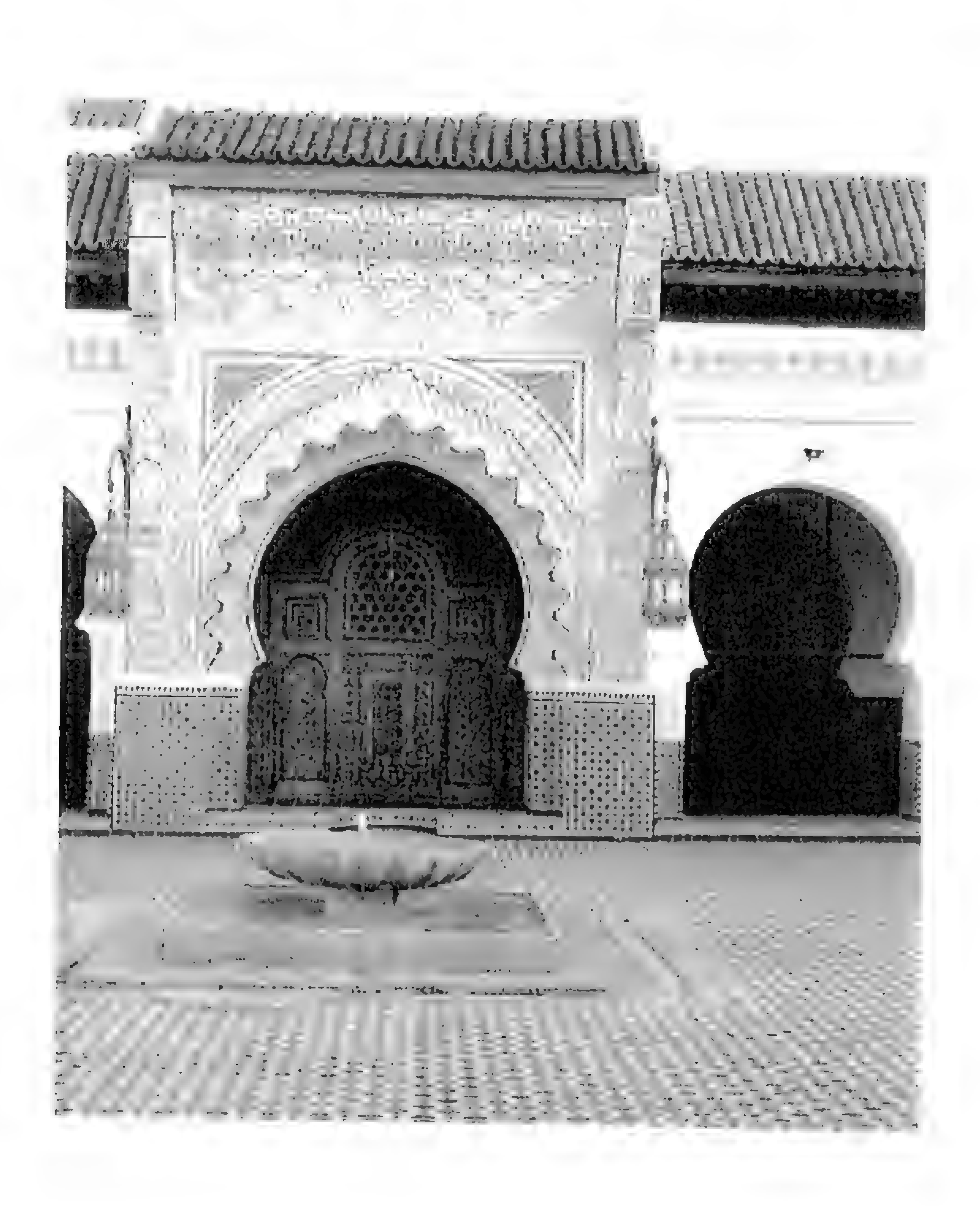
مكانتها كجامعة علمية رائدة في نشر العلم والمعرفة، فانتقلت خلالها من "المسجد الجامع" إلى "المسجد الجامعة".

وحين استجوابي للدكتور عبد الهادي التازي عن دور القرويين ماضيا ثم حاضرا، أجابني عن أنها مؤسسة كان لها دور في الماضي طويل وعريض، وفي الحاضر كذلك وننتظر أن يكون لها نفس الدور في المستقبل، أما دورها في الماضي؛ فلها الفضل في احتفاظ المغرب بالإسلام وفي بقاء المغربي متشبثا باللغة العربية، لغة القرآن، يرجع إلى هذا الجامع الذي نسميه جامع القرويين، لأنه هو المركز والمؤسسة الوحيدة التي كان المغرب يعتمد عليها في سائر الأطر التي يقوم عليها الحكم في المغرب، فمنها يتخرج الفقهاء، ومنها يتخرج الأدباء الذين يحرصون على حفظ اللغة العربية، ومنها يتخرج الشعراء، وعلماء الفلك الذين تعتمد عليهم الأمة في تحديد أوقات الصلاة، ومنها يتخرج كذلك المتعاطون للفنون الرياضية مثل الحساب الذي كان المحور الأساسي للمجتمع الإسلامي، ومنها كذلك تخرج الموسيقيون وتخرج عدد كبير من رجالات الدولة.

فأكد لي أن هذه القرويين، هذا المسجد، هذا الجامع، كان بمثابة مركز لتكوين الأطر التي يحتاج إليها المغرب في شتى الميادين بما في ذلك الميادين الديبلوماسية، فكثير من الشعراء الذين اعتمد عليهم المغرب في الماضي كانوا من متخرجي جامعة القرويين. وهذه الجامعة لم يبق إشعاعها مقتصرا على مدينة فاس، ولكنه تعداها إلى المدن الأخرى كمراكش التي كان الطلبة فيها لا يعتمدون على شهاداتهم النهائية إلا بعد أن يقضوا فترة من الزمان في جامعة فاس، هذا إلى وجود فروع لها في مختلف جهات المغرب في صحرائه وفي جباله.

المبحث الثاني:

دور القرويين في ترسيخ الهوية المغربية:



مدخل:

حول هذا الموضوع رأيت أن أجري حوارا صحفيا مع الدكتور عبد الهادي التازي الذي كتب فيه مقالا قيما، وكان يؤمن بما يقول فيه بأن الهوية المغربية مبدآن اثنان وعنصران اثنان؛ **أولا العقيدة:** أن يكون للإنسان عقيدة، يومن بالله وبرسوله وما جاء به القرآن وما جاء به الحديث. **ثانيا اللغة العربية:** فالهوية تتمثل في العقيدة وفي اللغة العربية، وهذه القرويين تضمن المبدأين الاثنين كما يجب، فالمتخرج منها متضلع في اللغة العربية كما يجب، مؤمن بالله كما يجب. فلو لم تكن هذه القرويين لما كان هناك إسلام ولما كانت عروبة في هذه الدنيا، ويذكر هنا مثلا عاميا يقال عندما تسأل تاجرا عن متاع أو مادة هل هي جيدة، قوية أم لا، يجيبك قائلا ويقول لك: "الصح في القرويين" "نحن هنا نمارس التجارة في أمور دنيوية عابرة، ومعنى كل هذا أن العامة متشبثة تشبثا كبيرا لهذه القرويين التي تضمن لها **البقاء على هويتها ومكاسبها**".

دور جامع القرويين في تكوين الشخصية الإسلامية:

تلك المدرسة الفكرية العتيقة التي تعتبر في الوعي الشعبي وعند بعض المثقفين المغاربة أقدم جامعة في العالم الإسلامي، بل وفي العالم قاطبة. شيد هذا الجامع كما يعرف الجميع من طرف سيدة تدعى فاطمة الفهرية في نفس الوقت الذي قامت فيه أخت لها تدعى مريم ببناء جامع آخر بعدوة الأندلس بفاس. فعملية بناء القرويين إذن تدخل في إطار ذلك التقليد الإسلامي الأصيل الذي كان مترفو وأولو الأمر في المجتمع الإسلامي بمقتضاه يقومون ببناء كثير من المرافق ذات المصلحة العمومية ومن ضمنها المساجد والمدارس وغيرها من المرافق ذات النفع العام.

بدأت عملية بناء مسجد القرويين سنة 245 هـ الموافق لسنة 859م وتم الانتهاء منها سنة 306هـ الموافق لسنة 918م. وبعد هذا التأسيس خضعت القرويين كما هو معلوم إلى توسيع وإضافات وإلى تجميل وتجهيز قامت به الأسر المتعاقبة على الحكم التي جعلت من هذا الجامع المركز الأساسي للحياة العلمية في المغرب مما جعل القرويين تلعب دورا كبيرا في تاريخ هذا البلد لا الفكري والديني فحسب بل والسياسي كذلك وإذا أردنا أن نقترب أكثر من دور القرويين التاريخي هذا، نلاحظ أنه يرتبط بمعطيين أساسيين:

المعطى الأول: هو الارتباط والتلازم بين القرويين كمؤسسة علمية ومدينة فاس كمركز للثقافة الحضرية.

المعطى الثاني: يخص تمتع جامع القرويين بعناية واهتمام الحكام في جميع مراحل تاريخه الطويل مما جعل مسيرته تخضع لسياسة هؤلاء الملوك والأمراء.

في الحالة الأولى يظهر جامع القرويين كمركز للثقافة الحضرية وكمعقل أساسي للمذهب المالكي. **وفي الحالة الثانية:** نجده في المجال السياسي بطرق مختلفة أهمها البيعة حيث يكون موقف العلماء حاسما بين طالبي الحكم كما أن السلطان من جهته باعتباره أمير المؤمنين وأكبر العلماء كان هو كذلك يهتم بشؤون القرويين.

وهكذا نرى أن القرويين العتيقة لم تكن مجرد مؤسسة تعليمية، بل كانت فوق ذلك مؤسسة ثقافية تختزل جزءا كبيرا من تاريخ المغرب. وإذا أردنا في عجالة تتبع تاريخ هذه المؤسسة يمكننا أن نميز فيه بين أربعة مراحل أساسية:

المرحلة الأولى تمتد من القرن العاشر الميلادي إلى القرن الثالث عشر منه. في هذه المرحلة لم تكن "القرويين" قد اكتسبت بعد شخصيتها الثقافية المتميزة. إذ أن ثقافتها في هذه المرحلة كانت جزءا من الثقافة الإسلامية العربية السائدة آنذاك في الشرق وفي الأندلس.

المرحلة الثانية يمكن حصرها بين فترة القرن الثالث عشر وفترة القرن الخامس عشر الميلاديين. وفي هذه المرحلة يمكن القول بأن القرويين قد اكتسبت شخصيتها العلمية المتميزة، فاستحقت بذلك أن يطلق عليها اسم مدرسة فاس تمييزا لها عن غيرها من المراكز العلمية الإسلامية في الشرق وافريقيا وفي الأندلس.

المرحلة الثالثة وهي تمتد من القرن الخامس عشر إلى بداية القرن العشرين. في هذه المرحلة عرفت "القرويين" تدعيم شخصيتها العلمية وذلك ببناء مرجعياتها النظرية وتأسيس مبادئها المنهجية. غير أنها في نفس الوقت عرفت توقف الإبداع النظري والاجتهاد الفكري وغلب التقليد على البحث والتجديد رغم بعض محاولات الإصلاح سواء في العهد السعدي أو من طرف بعض سلاطين الدولة العلوية.

المرحلة الرابعة، هي مرحلة ما سمي بالتنظيم أي هيكلة نظام الدراسة بالقرويين في بداية القرن العشرين.

سأعود الآن بشيء من التفصيل إلى هذه المراحل الأربع:

المرحلة الأولى: ذكرنا أن القرويين في هذه المرحلة لم تكن لها شخصية ثقافية خاصة. هذه المرحلة هي مرحلة نشأة القرويين، وهي نشأة مرتبطة إلى حد كبير بالتطور الاجتماعي

لمدينة فاس. مدينة فاس كونت كما هو معروف منذ تأسيسها مركزا حضاريا داخل محيط بدوي. وقد ساعدت الهجرة الخارجية إلى هذه المدينة، خاصة من القيروان، ومن قرطبة بالأندلس، على إبراز هذا الطابع وعلى إعطاء فاس صبغة المدينة الإسلامية الكلاسيكية التي حدد بعض الباحثين، ومن جملتهم لويس ماسينيون، مميزاتها في ازدهار التجارة وانتشار المقاولات الحرفية والاهتمام بالعلوم.

وبتوفر فاس على هذه العناصر الثلاث ستصبح مركزا ثقافيا حضاريا مرتبطا بصفة عامة بالثقافة السائدة في الأندلس وفي الشرق العربي، وعن طريق هذا الارتباط دخل المذهب المالكي إلى المغرب وساهم في ذلك نخبة من العلماء الذين رحلوا إلى المشرق وعادوا يعلمون أمثال أبي هارون البصري وأحمد بن الفتح المليلي ودراس بن اسماعيل الذي يقول عنه الرواة أنه أدخل مدونة سحنون إلى المغرب وأنه بواسطته انتشر المذهب المالكي في هذا البلد وابن العجوز وأبي جيدة وأبي محمد الأصيلي وعيسى بن سعادة وغيرهم، يضاف إلى ذلك أثر فقهاء الأندلس الذين بدأت أصداء أسمائهم تتردد على ألسنة العلماء المغاربة كما هو الحال بالنسبة لابن مجشون وابن الأصبغ في القرن التاسع الميلادي وابن زمنين وابن الحطاب والقاضي أبي الوليد الباجي في القرنين العاشر والحادي عشر الميلادين.

غير أن دور العلماء في تركيز المذهب المالكي في المغرب يجب أن لا يجعلنا ننسى دور الدولة الأساسي في هذا الباب والناس -كما قيل- على دين ملوكهم.

تواكب المرحلة التي نحن بصدد الكلام عليها في تاريخ القرويين ظهور الدولة المرابطية في القرن الحادي عشر الميلادي، ونحن نعرف الدور الذي لعبة المرابطون في نشر ودعم المذهب المالكي. ورغم الصعوبات التي عرفها المذهب في بداية العصر الموحدي فإن ذلك لم يمنعه من الانتشار والاستمرار في دعم مواقعه خاصة بعد قيام الدولة المرينية التي عملت على تثبيت ركائز هذا المذهب في المغرب. كانت القرويين بالطبع هي معقل الفقه المالكي غير أن طابع القرويين الفقهي هذا لم يمنع هذه المؤسسة أن تكون كذلك في هذه المرحلة مجالا لتداول عناصر أخرى من الثقافة الإسلامية حيث عرفت رحابها زيارة بعض أعلام التصوف مثل ابن عربي الحاتمي الذي زارها، وأبو الحسن ابن حرزهم الذي درس بها كتب الغزالي في أواسط القرن الثاني عشر الميلادي، حيث كان الولي الشهير أبو مدين من بين تلامذته. كما أن الولي مولاي عبد السلام بن مشيش قطب الحركة الشاذلية بالمغرب كان من رواد القرويين في هذه المرحلة.

ثقافة القرويين في هذه المرحلة رغم طابعها الفقهي كانت ثقافة موسوعية تجمع بين الفقه والأدب والتصوف ... الخ على غرار ما كان معروفا في أهم مراكز هذه الثقافة في الشرق الإسلامي. غير أن هناك من الباحثين من يرى مثل جاك بيرك أن بداية تكون شخصية القرويين الثقافية تعود إلى هذه الفترة. وفي هذا الإطار تتم الإشارة بصفة خاصة إلى مساهمة أبي الحجاج المطيطي في ميدان صياغة العقود باعتباره أحد المؤسسين لفقه العمل والنوازل.

المرحلة الثانية: تمتد من القرن الثالث عشر إلى القرن الخامس عشر، وهي مرحلة تصادف فترة حكم بني مرين. في هذه الفترة أصبح جامع القرويين أحد المعاقل الأساسية للمذهب المالكي في العالم الإسلامي. كما أن التعليم في القرويين تدعم في هذه المرحلة بمجموعة من المؤسسات الأخرى التي أنشأها المرينيون تحت اسم المدارس ومن جملتها: مدرسة الصفارين التي أسسها أبو يوسف يعقوب، ومدرسة للصهريج التي أسسها أبو الحسن، ومدرسة العطارين التي أسسها أبو سعيد والمدرسة المصباحية التي أسسها أبو الحسن، والمدرسة البوعنانية التي أسسها أبو عنان. كل هذه المؤسسات ساهمت إلى جانب القرويين في إعطاء مدينة فاس طابعها الثقافي المتميز. وبغض النظر عن الأسباب التي دفعت المرينيين إلى تأسيس هذه المدارس وبغض النظر كذلك عن طبيعة العلاقة بين حكام بني مرين وعلماء مدينة فاس عامة وعلماء القرويين خاصة، فإن الملاحظ هو أن المنافسة بين الطرفين وكذلك رغبة المرينيين في اكتساب الشرعية عن طريق اتباع سياسة دينية فعالة، كان تشييد المدارس أحد مظاهرها، قد ساهم إلى حد كبير في تدعيم ثقافة القرويين الفقهية. في نفس الإطار تجب الإشارة إلى أن العمل بنظام الصلة، وهو نوع من الرعاية المادية للعلماء من طرف الدولة، هو من أعمال الأمراء المرينيين، وهو بالتالي تقليد يعود إلى المرحلة التي نحن بصددها. ما يجب التنبيه إليه بصدد تقليد الصلة هذا، الذي سيصبح أحد الأعمدة الأساسية لسياسة الحكام إزاء العلماء هو أنه لم يترتب عليه أي تغيير في علاقة القرويين بالسلطة السياسية إذ حافظ علماء القرويين للمؤسسة على استقلالها خاصة على مستوى التحكم في محتوى التعليم.

محتوى التعليم في القرويين في هذه المرحلة، وقد أصبحت معقلا هاما من معاقل المذهب المالكي، كان يعتمد على مصدرين أساسيين من مصادر المذهب وهما: المدونة والرسالة. أما منهج الدراسة فقد كان يعتمد على الحفظ، إذ أن قيمة العالم ومركزه كانا يقومان على قوة ذاكرته وحجم محفوظاته. ومن النتائج المترتبة عن منهجية الحفظ هذه اللجوء إلى المختصرات. وهكذا إلى جانب المدونة والرسالة تم إدخال مختصر خليل بن إسحاق المتوفى وتحفة ابن عاصم. وكلا المختصرين تم إدخالهما إلى المغرب في نهاية القرن الرابع عشر

الميلادي. ومع انتشار استعمال هذه المختصرات ازدادت هيمنة الفقه على الدراسة وتأكد تهميش غيره من ميادين المعرفة الإسلامية. غير أن المهم هنا على مستوى تحديد الشخصية الثقافية للقرويين، هو أنه مع هذه المختصرات بدأ اهتمام الفقهاء يتحول من الاعتناء بفقه الأصول إلى الاشتغال بفقه النوازل. وفي ميدان فقه النوازل هذا برز إبداع علماء القرويين وتأكدت ملامح ما سمي بمدرسة فاس الفقهية.

المرحلة الثالثة: وهي مرحلة طويلة تمتد من القرن الخامس عشر إلى بداية القرن العشرين. ثقافة القرويين طيلة هذه المدة تتميز بهيمنة الفقه وباهتمام الفقهاء الكبير بفقه العمل والنوازل على حساب فقه الأصول وعلى حساب الثقافة الموسوعية عامة. ويرجع بعض الباحثين هذا التحول في ثقافة علماء فاس إلى وضعية المغرب خلال فترة القرنين الخامس عشر والسادس عشر الميلاديين، وما عرفته من أزمة اقتصادية وتراجع في العلاقات التجارية الخارجية. ثقافة فاس قبل هذه المرحلة كانت ثقافة موسوعية تجمع بين الفقه والأدب والمنطق والتصوف والعلوم المختلفة، وعلماء القرويين كانوا أقرب ثقافيا إلى ثقافة مدن تونس أو مدن الأندلس منهم إلى ثقافة المحيط البدوي لمدينة فاس. غير أن تلك الأزمة الاقتصادية[16]، أرغمت النخبة المثقفة إلى التحول إلى هيئة تعليمية في خدمة مجتمع بدوي غير قادر على استيعاب جميع عناصر الثقافة الحضرية. وهكذا حل نوع من "التضامن العمودي" بين مثقفي حاضرة فاس ومحيطهم الاجتماعي البدوي محل ذلك "التضامن الأفقي" الذي يجمع بين مثقفي فاس ومثقفي حواضر العالم الإسلامي الأخرى. وكانت نتيجة ذلك حسب تحليل عبد الله العروي هو تراجع عناصر الثقافة "الدنيوية" في مقابل تركيز الجانب الفقهي الاجتماعي الممثل في أدب النوازل.

في هذا السياق يمكن إدراك أهمية كتابين أساسيين في هذا الباب هما "معيار الونشريسي" المتوفى سنة 914هـ/1508م، و"لامية علي الزقاق" المتوفى سنة 912هـ/1506م.

إن كثيرا من الباحثين يتفقون على أن بداية تقهقر القرويين تعود إلى القرن الخامس عشر الميلادي ومؤشرات هذا التقهقر حسب هؤلاء الباحثين هي:

أولا: التقلص المتزايد لمحتوى ومضمون ثقافة علماء القرويين.

ثانيا: سد باب الاجتهاد وبروز ما يعرف بالتقليد القائم على تقديس آراء القدماء.

ثالثا: ندرة متزايدة في ظهور كبار العلماء ذوي السلطة الفكرية المتميزة.

---

[16]- العروي عبد الله في كتاب أزمة المثقفين العرب ص: 48.

تراجع القرويين وغلبة عقلية التقليد على منطق التجديد والاجتهاد لم يمنع من ظهور المحاولات المختلفة لإعادة الروح للتعليم سواء في مدينة فاس أو في غيرها من المدن الأخرى، بل وحتى في بعض المراكز البدوية أو النائية مثل منطقة سوس خاصة على عهد بعض السلاطين المصلحين سواء في العهد السعدي والعهد العلوي، إلا أن هذه المحاولات وإن كانت قد أعادت بعض الحيوية إلى نظام التعليم إلا أنها لم تستطع إيقاف مسلسل تراجع القرويين التي أصبحت بعض مؤسسات الأطراف مثل زاوية الدلاء وزاوية تامغروت تفوقها إشعاعا في العلم و في النفوذ. بل وإن بعض العلوم وبعض الكتب التي توقف تدريسها في القرويين لم تستطع الحفاظ على وجودها واستمرارها إلا بفضل علماء بعض الزوايا أو بفضل احتضانها من طرف بعض العائلات الخاصة التي أصبح اسم بعضها مقترنا باحتكار بعض المعارف والعلوم عن طريق الوراثة داخل مدينة فاس نفسها لكن خارج حظيرة جامع القرويين.

المرحلة الرابعة: هي مرحلة ما يسمى بالتنظيم، أي المرحلة التي عرفت نهاية نظام القرويين التقليدي وقيام نظام جديد مستوحى من نظام الإصلاح الذي سبق أن عرفته الأزهر بمصر، وذلك بعد أن بلغ نظام التعليم في القرويين ذروة أزمته خلال القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين. الدراسة الفقهية في القرويين في هذه المرحلة تركزت على كتاب "مختصر سيدي خليل" ولم يعد هناك اهتمام بالأمهات مثل المدونة التي لم تعد تدرس في القرويين. نفس المصير عرفته كتب الحديث والتفسير والبلاغة التي أصابها التهميش من جراء هيمنة الفقه الذي كان تدريسه يشغل غالبية حصص التعليم داخل القرويين. في بداية القرن العشرين كان التعليم داخل جامع القرويين يتوزعه تخصصان أساسيان هما الفقه الذي يتم تدريسه في الصباح والأدب الذي يتم تدريسه عادة خلال الظهر. هذان التخصصان كانا أهم عنصرين في ثقافة الخاصة الفاسية آنذاك. غير أن حظوتهما ترجع بالأساس إلى البنية الاجتماعية المغربية آنذاك وإلى حاجة هذه البنية إلى القضاة والكتاب وهما فئتان ضروريتان لسير نظام المجتمع والمخزن التقليديين. لذلك تركز تعليم القرويين على هذين التخصصين واستعمال مجموعة من المختصرات في تعليمهما كان أهمها على مستوى تعليم الفقه "مختصر خليل" مع تعليق الزرقاني و"رسالة ابن أبي زيد القيرواني" و"تحفة ابن عاصم" مع شروح التسولي والتاودي بن سودة و"لامية علي الزقاق" مع شرح هذا الأخير كذلك، وعلى مستوى تعليم النحو كانت الدراسة تدور حول "ألفية ابن مالك" مع شروح المكودي وابن عقيل وابن هشام و"أجرومية ابن أجروم" مع شرح الأزهري.

هيمنة هذه المختصرات مع ما صاحبها من إفقار لمضمون ثقافة القرويين زيادة على سيطرة التقليد وأسلوب الحفظ، هو الذي أدى إلى الوعي بما يعرف بأزمة القرويين وبالتالي إلى إخضاع المؤسسة إلى التنظيم في بداية القرن العشرين.

قبل هذا التنظيم سبق للقرويين أن عرفت محاولات أخرى للإصلاح في مقدمتها محاولة السلطان سيدي محمد بن عبد الله الذي قام ضد دراسة المختصرات ومن ضمنها مختصر خليل كما حاول أن يحيي تدريس الحديث وأجرى عدة لقاءات مع العلماء وألف بعض المؤلفات مثل كتاب مساند الأئمة الأربعة والفتوحات الإلاهية. وهناك المنشور المعروف لهذا السلطان أصدره سنة 1203هـ/1789م حاول فيه وضع برنامج للدراسة داخل جامع القرويين. بعد هذه المحاولة هناك كذلك محاولة السلطان مولاي عبد الرحمان الذي أصدر بدوره ظهيرا سنة 1261هـ/1845م يندد فيه بسلبيات التعليم بالقرويين وعقمه وطول مدته. فشل هذه المحاولات الإصلاحية بالإضافة إلى عجز نظام التعليم التقليدي عن تلبية حاجيات الدولة من المتعلمين في مختلف الميادين دفع بعض السلاطين إلى التفكير في تأسيس مراكز أخرى للتكوين وإرسال البعثات الطلابية إلى الخارج خاصة في عهد السلطانين محمد الرابع والحسن الأول. وبعد كل هذه المحاولات تأتي عملية تنظيم القرويين في بداية القرن العشرين. بدأت هذه العملية في عهد السلطان مولاي يوسف وكلف بها الشيخ أحمد بلخياط الذي عين على رأس مجلس سمي بالمجلس التحسيني. وفي سنة 1919 قام الوزير الحجوي بمحاولة أخرى لإعادة تنظيم الدراسة بجامع القرويين، لكنها باءت هي الأخرى بالفشل نظرا لمعارضة فقهاء المؤسسة التقليديين. وفي 7 فبراير 1930 تكونت لجنة جديدة مهمتها وضع برنامج لإصلاح الدراسة بجامع القرويين برئاسة الصدر الأعظم وعضوية الوزير أبي شعيب الدكالي ورئيس محكمة الاستئناف الشرعي مولاي العربي العلوي وممثل الصدر الأعظم آنذاك محمد الحجوي وكذلك الفقيه المعمري باعتباره ممثلا للإقامة العامة. وقد أثارت هذه المحاولة الإصلاحية انتقادات بعض العلماء الذين رفضوا تدخل المخزن في شؤون القرويين وقاموا ضد إسناد هذه المهمة إلى العلماء الموظفين. وعلى العموم فقد برز موقفان من هذا الإصلاح: موقف مساند يتزعمه الشيخ أبو شعيب الدكالي والفقيه محمد بن العربي العلوي، وموقف معارض يتزعمه أحمد بلخياط وأحمد بن الجيلالي والفاطمي الشرادي وعبد الحي الكتاني. وفي وسط الطلبة كذلك كان طلبة فاس في أغلبهم بجانب دعاة إصلاح نظام التعليم بالقرويين بينما كان الطلبة "الأفاقيون" في مجملهم معارضين لهذا الإصلاح. إدارة الحماية بدورها ستعمل على إنجاح عملية إصلاح القرويين، وهناك نص للقبطان "بول مارتي" مأخوذ من كتاب(Le Maroc de demain, p : 66) يشرح فيه الأسباب

والدواعي السياسية التي تفرض على الحماية أن تكون بجانب إصلاح القرويين وتحويلها إلى مركز علمي متميز يسمح باستقطاب أفراد النخبة المغربية عوض تركهم مشتتين في مراكز متعددة ومتباعدة تصعب مراقبتها أو السماح لهم بمغادرة المغرب إلى الشرق العربي لمتابعة التعليم في بلدان تروج فيها الأفكار المعادية للاستعمار الفرنسي. وعلى العموم فإن سعي المخزن لإصلاح نظام التعليم بالقرويين التقى برغبة إدارة الحماية في مراقبة هذه المؤسسة وتحديثها فكان نتيجة ذلك دخول نظام التعليم الجديد حيز التنفيذ تطبيقا لتوجهات ومقررات لجنة الإصلاح التي أصبحت نافذة المفعول بمقتضى ظهائر 30 مارس 1931 و31 مارس 1933.

حسب هذا التنظيم الجديد حددت مدة الدراسة داخل القرويين في اثني عشر سنة (12) موزعة بين أسلاك تعليمية ثلاثة، هي التعليم الابتدائي والتعليم الثانوي والتعليم العالي. كما حددت المقررات الدراسية ووزعت المواد بين شعبتين أساسيتين هما الشعبة الدينية والشعبة الأدبية. وبذلك تم إدخال مواد جديدة إلى القرويين، كما أصبح العمل التقويمي يتم على أساس الامتحانات عوض نظام الإجازة التقليدي. غير أن أهم تغيير عرفته مؤسسة القرويين هو ذلك التغيير الذي لحق وضعية المدرسين. فالعالم الذي كان في نظام القرويين العتيقة يتمتع بالاستقلالية إزاء السلطة والذي كان راتبه يأتي عن طريق الأحباس أو بعض الهدايا والصلات، أصبح في التنظيم الجديد مجرد موظف ينتظر راتبه الشهري كغيره من الموظفين الإداريين. وقد شغلت مسألة "العالم مول الماندة" هذه اهتمام العلماء لمدة طويلة، ولازال الحديث عن أبعادها السياسية قائما حتى اليوم خاصة في بعض الأوساط السياسية الدينية.

تغيير وضعية القرويين وتحويلها إلى مجرد مؤسسة تربوية خاضعة لمراقبة الإدارة كان عبارة عن تغيير جذري في تاريخ هذه المؤسسة لا على مستوى نظام تعليمها ومحتوى ثقافتها فحسب بل وأساسا على مستوى وزنها السياسي وعلاقة علمائها بالمخزن. قبل التنظيم كانت القرويين تتمتع بالاستقلال التربوي والمالي ولم يكن في استطاعة السلطان لا فرض تغيير محتوى التعليم ولا التدخل في أحكام القضاة. لأن العلماء، (مدرسين وقضاة) كانوا يتمتعون باستقلالية مادية توفرها لهم مداخيل الأحباس خلاف فئات الخدام الإداريين والعسكريين الذين كانوا يتقاضون الرواتب من بيت المال.

علاقة العلماء بالمخزن كانت إذن علاقة توازن وتكافؤ وتضامن كذلك لأنها تتعدى مستوى الخدمة إلى مستوى الائتمان المشترك على حماية الشريعة. فالشريعة التي يمثلها العلماء كانت كذلك هي الأساس الذي تقوم عليه سلطة السلطان.

علاقة العلماء بالمخزن في إطار النظام القديم كانت إذن علاقة تضامن موضوعية تحكمها على المستوى التشريعي المبادئ المالكية فيما يخص دور الحاكم ووظيفة العلماء. العلماء كانوا كذلك جزءا من الخاصة كما كان كبارهم يعتبرون من أهل الحل والعقد يتدخلون في مسألة البيعة واختيار السلطان ويستشارون في قضايا السياسة وتدبير شؤون الرعية. هذا على مستوى قمة هرم السلطة أما على مستوى قاعدتها فإن القاضي والقائد كانا يعملان معا على تدعيم وتوسيع مناطق نفوذ الشرع. دور العالم السياسي كان دورا كبيرا ومهما وأحيانا خطيرا يصل إلى حد إقالة ملك وتنصيب ملك آخر مكانه كما حدث في حالة عزل السلطان مولاي عبد العزيز وتنصيب السلطان مولاي عبد الحفيظ خلفا له. مع إصلاح القرويين فقد العالم هذا الدور وتم بناء نوع من العلاقة الجديدة بين العالم والسلطة في إطار التغيير العام للهياكل السياسية التي عرفها المغرب مع الحماية ثم أثناء فترة الاستقلال.

وكما سبق القول فلكل أمة من الأمم شخصيتان إحداهما مادية والأخرى روحية أو معنوية وتتجلى في التراث الروحي الزاخر الذي تنتجه وتنميه في إطار حضارتها المتوارثة والذي يثريه العلماء والمفكرون. والأمة الإسلامية ذات الحضارة العريقة والمجيدة تتكون شخصيتها من خلال عوامل ثقافية واجتماعية وحضارية تسهم في صياغة ملامحها العامة، وبخاصة على مستوى تكوين قيمها الحضارية والإنسانية التي أسهمت المؤسسات التعليمية الجامعية العريقة إسهاما قويا في بناء لبناتها الأساسية.

ولما كانت جامعة القرويين من الجامعات الإسلامية العريقة ذات العطاء الخالد، فإن ما قدمته من علوم وعلماء وتراث علمي وفكري عبر الأجيال والعصور يعتبر رافدا أساسيا من روافد الشخصية الإسلامية وينبوعا صافيا قدم للحضارة الإنسانية النماذج الرائدة في مجال العلوم الدينية والدنيوية.

انه لا يمكن الحديث عن الشخصية الإسلامية في المجال الثقافي والعلمي دون الحديث عن دور جامعة القرويين في تكوين معالم هذه الشخصية انطلاقا من إشعاعها العلمي الواسع في الغرب الإسلامي والمشرق على السواء ، فجامعة القرويين لم تكن مجرد جامعة علمية لتكوين الأطر الدينية أو مدرسة تعليمية لتدريس علوم القرآن والحديث والفقه وغيرها، وإنما كانت تمثل معلمة من معالم الإسلام عبر قرون متعددة. فكثير من علمائها الذين خلفوا آثاراً جليلة لا تزال أسماؤهم متداولة عبر مختلف الجامعات الإسلامية والمجالس العلمية خاصة في مجال القراءات القرآنية والحديث والفقه والأصول .

لقد حملت القرويين الرسالة التي وكلت إليها منذ إنشائها كجامع إلى أن أصبحت جامعة؛ فقامت بحمل عبء الرسالة لعصور متتالية ومتعاقبة، وهذه الرسالة ترتبط في أسسها بالعقيدة الإسلامية واللغة العربية والمعارف العربية الإسلامية المتوارثة، أو ما يسمى بالتراث العربي الإسلامي، وهو ما يسمح بالقول بأن جامعة القرويين كان لها دور مهم في الحفاظ على الشخصية العربية الإسلامية عبر العصور. فقد كانت المؤسسة العلمية الكبرى التي رسخت أسس المذهب المالكي، فصهرت بذلك المجتمع المغربي في بوتقة الوحدة المذهبية والعقدية التي عمل علماء القرويين على ترسيخها بقوة من خلال الالتزام بتدريس وتعليم ما يستهدف تحقيق تلك الوحدة. وفضلاً عن ذلك سهر علماء القرويين على القيام برسالة الحفاظ على اللغة العربية بمختلف آلياتها النحوية والبلاغية تحقيقا للوحدة اللغوية.

وبذلك تكون القرويين قد حملت مقومات الثقافة الإسلامية الصحيحة إلى المجتمعات العربية عن طريق علمائها وفقهائها ومفكريها الذين كانوا الحافظين في صدورهم لأصول ذلكم التراث وكانوا المدافعين بقوة المنطق والتفكير عن أسسه وقيمه والملقنين بألسنتهم وكتبهم لهذا التراث للأجيال اللاحقة، فلا غرابة أن يدرّس أبو عمران الفاسي (ت 430هـ) الذي بلغ درجة الاجتهاد في المذهب المالكي في رحاب القيروان التونسية والأزهر المصرية، وأن يملي أبو علي القالي أدبه في قرطبة، وأن ينشد سابق المطماطي قصائده في بلاط دمشق، وأن يتتلمذ دفين مدينة فاس القاضي أبو بكر بن العربي (ت 543 هـ) على يد أبي حامد الغزالي بالمشرق ثم يؤلف كتبه بالمغرب والأندلس، أما ابن آجروم النحوي (ت 723هـ) فقد دون كتابه الشهير في النحو بفاس وشُرح بالقاهرة وبغداد وتُرجم وطبع بأوروبا[17]. وبذلك ساهم هؤلاء وغيرهم في الحفاظ على الشخصية العلمية الإسلامية، خاصة وأن معظم فروع المعرفة التي كانت تدرس فيها لها صلة بالدين، مما اعتبر عاملا قويا في صيانة التراث الإسلامي العربي من جهة وحماية الشخصية الإسلامية من جهة أخرى.لقد أسهمت جامعة القرويين في بناء الشخصية الإسلامية من خلال حملها لواء الأصالة والتجديد في وقت واحد ومحافظتها على القيم الدينية السائدة فضلا عن حمايتها للثقافة الإسلامية التي طبعتها الجامعة بالطابع المغربي الأصيل. ولا شك أن عوامل الجغرافيا قد جعلت من المغرب ساحة للتلاقي الحضاري بين الشمال والجنوب وبين أوروبا وإفريقيا، وهذا العامل

---

[17]- هذه نماذج معدودة لبعض مشاهير علماء القرويين، وهناك عدد كبير من علماء مدينة فاس الذين رحلوا إلى المشرق وورد ذكرهم في مختلف الكتب التي ترجمت لأعلام مدينة فاس مثل: روض القرطاس، والأنيس المطرب وكلاهما لابن أبي زرع وجذوة الاقتباس لابن القاضي وسلوة الأنفاس للكتاني.

الجغرافي جعل من المغرب ممثلا في جامعة القرويين القلعة الإسلامية الأولى التي تحمي الحضارة الإسلامية من أخطار الغزو الصليبي والمد التبشيري وتعطي للشخصية الإسلامية قوتها وحيويتها مغذية بذلك الثقافة الإسلامية بصفة عامة بالقيم والمبادئ والمثل الأصيلة.

وإذا كانت الهوية الثقافية الإسلامية هي ذلك القدر الثابت والجوهري المشترك من السمات والقسمات العامة التي تميز حضارة هذه الأمة عن غيرها من الحضارات والتي تجعل للشخصية الإسلامية طابعا تتميز به عن الشخصيات الحضارية الأخرى، فإن جامعة القرويين من خلال ما أنتجه علماؤها من تراث وفكر حضاري إسلامي متميز قد سعت إلى الحفاظ على ذاتية وأصالة وشخصية الأمة الإسلامية وذلك انطلاقا من الأركان الثلاثة الرئيسة: العقيدة واللغة والتراث الثقافي.

إن أبرز ما قدمته القرويين للمجتمع المغربي أولا وللمجتمعات العربية والإسلامية ثانيا هو تكوين شخصية إسلامية وبناء هوية دينية ورسم ذاكرة اجتماعية، وقد تمكنت من ذلك بفضل مناهجها العلمية الجامعة بين علوم الدين والدنيا وبفضل كفاءة علمائها الذين تولوا التدريس برحابها حيث تعدى إشعاعهم حدود المغرب العربي إلى إفريقيا والأندلس ومنها إلى مختلف الدول الأوروبية.

لقد كان دور جامعة القرويين في نشر مختلف العلوم والفنون يمثل رسالة حضارية حافظت على معالم الشخصية الإسلامية وأسهمت في صياغتها من خلال الحفاظ والدفاع عن أصالة اللغة العربية وفرضها لغة العلم والمعرفة، وقد ساعد على ذلك تكريس سلاطين وملوك الدولة المغربية لسياسة التعريب الشاملة في مجال التعليم، فكان أبناء المغرب والوافدون عليه من الخارج يلتقون جميعا على اختلاف ألسنتهم ولهجاتهم على اللسان العربي.

وإذا كان للقرويين الدور الفاعل في الإسهام الموفور في تشخيص الحضارة الإسلامية وتعميق أسسها الثقافية فإن المغرب حين التحق بهذه الحضارة وسار في ركابها ظل حريصا من خلال معقل القرويين على التعبير عن ذاتيته وتحقيق خصوصيته الحضارية من خلال تراثه الفكري والثقافي ومنظومة القيم والتقاليد ومناهج النظر العلمي والمعرفي فضلا عن خصوصية أشكال الفنون المعمارية الفاسية مما تم اقتباسه فيما بعد من طرف دول إسلامية كثيرة[18]. فكان كل ذلك إسهاما متميزا في تغذية الشخصية الإسلامية بالإبداع والعطاء المغربي.

18- من المعلوم أن كثيرا من فنون النقش على الجبص والخشب المعروفة في بعض البلدان المشرقية لها أصول فاسية وأندلسية.

المرأة في القرويين:

أوصى الإسلام بالمرأة حيث أخرجها من ظلمات الجاهلية إلى نور الإيمان بتعليمها دين ربها وسنة نبيها.

فسارت جامعة "القرويين" على نفس النهج الذي كان عليه الرعيل الأول، فبرزت سيدة من فضليات فاس، كانت ذات فضل كبير على تثقيف السيدات المتطلعات، فقد ظلت بيوت العلماء والفقهاء بمن فيها من بنات وأمهات مراكز علم، يتلقين فيها ما ينفعهن في دينهن ودنياهن، علاوة على دور الخلفاء والملوك التي كانت تعنى بتثقيف المرأة إعدادا لها لمشورة الرجل في أوقاته الصعبة.

وكل واحد في المغرب، وفي فاس على الخصوص يعرف عن العدد الكثير من مدارس البنات التي كانت تعرف باسم "دار الفقهية" فإن كل حي من أحياء المدينة وكل منعرج، كان يتوفر على طائفة من هذه الدور التي تديرها عادة سيدات أخذن عن أعلام لهم صلة وثيقة بمجالس القرويين.

وقد عرف التاريخ المغربي أسماء كثيرات من النساء اللاتي اشتهرن في فاس بنشاطهن العلمي. أمثال الأميرة تميمة أخت علي بن يوسف التي كانت تسكن عدوة القرويين، وخيرونة الفاسية التي كان لها يد في نشر العقيدة الأشعرية في نساء فاس، والشاعرة أم النساء بنت عبد المؤمن التاجر الفاسي، ومن عالمات هذا العصر: الست سارة بنت أحمد بن عثمان (750 هـ) الأديبة الشاعرة التي بلغت من ثقافتها أن افتخر ابن سلمون (741هـ) بإجازتها له، وقد تبادلت الشعر مع ابن رشيد الفهري.

كما عرفنا الفقيهة المفتية أم هانئ العبدوسة[19]، وشقيقتها الشيخة فاطمة من الأسرة التي اشتهر بالعلم رجالها ونساؤها على السواء، والسيدة الفقيهة أم البنين جدة الشيخ زروق، وقد كن يخضرن دروس الشيخ العبدوسي (848 هـ) صاحب نظرية التحديد من النسل.

وقد كان ضمن المجموعة الخيرة عدد آخر من أهل القرن التاسع.

ومع أن هؤلاء السيدات كن يزاولن دراستهن في "الدور" المخصصة لهن، فإن هناك في القرويين أماكن كانت تساعد من حيث موقعها على حضور المرأة للاستماع مباشرة من كبار المشايخ مثل ما يسمعه الطلاب.

19- راجع كتاب القرويين للدكتور عبد الهادي التازي، المرجع السابق في المجلد الثاني، فصل ترجمات الرجال.

فقد كان لها مطلع خاص من جامع الجنائز ... وكانت تشرف على أهم كرسي علمي عرفته القرويين في تاريخها الفكري، كما أن في مستودع ابن عباد الخاص بالنساء الذي كان يشرف على كرسي ظهر خصة العين ما يؤكد مشاركة المرأة للرجل في الأخذ بجوانب المعرفة، وهي الظاهرة التي لم يخل منها عصر من عصور فاس منذ تأسيسها إلى يومنا هذا.

إسهامات جامعة القرويين في بناء الحضارة الإسلامية الإنسانية:

لقد كان بفاس في سائر عهودها ومراحل تاريخها كثير من العلماء والمحدثين والفقهاء والأدباء والشعراء والأطباء ورجال الفكر وغيرهم من نبهاء العلوم والفنون، منهم من ولد ونشأ فيها، ومنهم من ورد عليها من مختلف المدن والبلدان وأخذ عن أعلامها وأخذوا عنه فاندمج معهم وأثر فيهم وتأثر بهم، مما سمح بتلاقح ثقافي وحضاري امتزجت فيه معارف مختلفة وثقافات متنوعة، إلا أن كل هؤلاء العلماء من مواطني البلدة أو الوافدين عليها كان لهم اتصال وتأثر بالقرويين، مما سمح للكثير منهم ممن ارتحلوا إلى بلدان خارج المغرب بنشر علم القرويين وإنفاقه عن طريق تولي مناصب التدريس أو الإفتاء أو الخطابة أو القضاء بالمدن الأندلسية التي يعودون إليها أو بمختلف الحواضر العلمية التي يحطون بها الرحال وهم في طريقهم إلى الشام أو الحجاز حيث كان العالم المغربي المحاضر يملي درسه بالقرويين وعندما يكون في طريقه إلى الشرق يملي محاضراته في بجاية والقيروان وتونس وطرابلس والأزهر والقدس ودمشق وبغداد وفي الحرمين الشريفين.

وبذلك كان للقرويين دور كبير وإسهام فاعل في إثراء مختلف العلوم والفنون المتبادلة بين المشارقة والأندلسيين من جهة والمغاربة من جهة أخرى، ولعل أكبر دليل على أن علم مدينة فاس ممثلا فيما يبث في جنبات القرويين والمدارس المحيطة به كان ينشره العلماء في مختلف الآفاق والأصقاع أن سلاطين بني مرين كانوا يصطحبون في أسفارهم خارج المغرب جملة وافرة من كبار علماء القرويين يجالسون نظراءهم المشارقة ويناظرونهم، فالسلطان أبو الحسن المريني عند رجوعه بعد عيد الفطر عام 750هـ من تونس في أساطيله المتعددة كان معه فيها نحو أربعمائة عالم هلك معظمهم في كارثة الأسطول الذي غرق في البحر الأبيض المتوسط على مقربة من بجاية، وكان من هؤلاء العالم السفير أبو عبد الله السطي وأبو العباس الزواوي. وكان لكثير من العلماء الرحالة الذين درسوا ودرّسوا بالقرويين أمثال ابن العربي(ت543 هـ) وابن رشيد السبتي (ت 721 هـ) وابن الحاج

الفاسي (ت737 هـ) وابن ميمون الغماري(ت 917 هـ) وغيرهم أثر في نقل علوم ومناهج علماء القرويين إلى المشرق مما أسهم في إثراء واغتناء الثقافة والحضارة الإسلاميتين بإنتاج المغاربة الذي طبعته القرويين بطابعها الخاص والمتميز. فالعلامة أحمد زروق الفاسي (ت 899هـ) رحل مرات عديدة إلى المشرق وكان يقيم من حين لآخر في مختلف الحواضر العربية مدرسا ومفتيا وخطيبا إلى أن وافته المنية بمدينة مصراته الليبية. أما الشريف الإدريسي (ت560 هـ) الذي يعتبر من أشهر الجغرافيين العالميين فقد قضى بفاس ردحا من الزمن مفيدا ومستفيدا ثم رحل إلى بقاع عديدة من العالم ، ونقل عن الطبيب المشهور ابن زهر (ت 596 هـ) المعروف باسم Avenzoar بأنه ظل متنقلا بين الأندلس وفاس ومراكش.

وحتى عندما أصبحت مراكش عاصمة المغرب السياسية في بعض العهود كانت فاس بفضل القرويين ومعاهدها الشهيرة عاصمة الغرب الإسلامي فكريا وعلميا وأدبيا ، حيث انبثق منها الإشعاع لينير الحضارة الغربية وأضاء جوانب أوروبا التي كانت منغمسة في عصور الظلام.

وإذا كانت العلوم المدروسة بالقرويين تشمل الدراسات الدينية الخالصة (العقيدة-علوم القرآن والتفسير والحديث والفقه والأصول والسيرة النبوية وغيرها) والدراسات الإنسانية (اللغات وآدابها وعلوم التاريخ والاجتماع والشعر والتربية والفلسفة والفنون على تباين صورها) ودراسات العلوم البحتة من حساب ورياضيات وعلم الفلك وغيرها وكذا دراسات العلوم التطبيقية من طب وهندسة وغيرهما، فإنه يمكن القول بأن جامعة القرويين قد تم برحابها دراسة أبرز العلوم والمعارف السائدة في ذلك العصر. هذا في الوقت الذي كانت فيه مراكز العلم والعرفان بأوروبا لم تظهر بعد، وكانت بعض معاهد العلم والترجمة بإسبانيا تضطلع بنقل تراث علماء القرويين خاصة في حقول المنطق والطب والفلك إلى اللاتينية وغيرها من اللغات الأوروبية.

لقد كان علماء جامعة القرويين في عهودها السالفة مستوعبين للثقافات السائدة وواعين بطبيعة التغير الاجتماعي والثقافي الذي يحدث في الشرق والغرب على السواء. فقد ظل- على سبيل المثال- اسم الرحالة أبي سالم العياشي (1090هـ) معروفا في المشرق بما سجله من انطباعات وما حققه من لقاءات. كما حرص أبو العباس المكودي (ت1170هـ) على ربط صلات قوية بين علماء القرويين وعلماء الزيتونة. وهو ما جعلهم يتفاعلون مع ذلك مسترشدين بخصائص الثقافة المغربية وأمكنهم بذلك الوعي بأهمية الدور الذي يمكن أن تقوم به جامعة القرويين في بناء فلسفة اجتماعية وثقافية صالحة تسهم في بناء الحضارة الإنسانية.

لقد انفتحت الجامعة في القرنين الماضيين على بعض التجارب الإنسانية النافعة ولو كانت قادمة من الغرب المسيحي[20] واستفادت منها وتفاعلت معها مع الاحتفاظ منها بما لا يتعارض مع القيم الدينية والخصوصيات الثقافية ولا يمس الشخصية الإسلامية العربية. غير أن القرويين أبت أن يبلغ بها الانفتاح على الثقافات الإنسانية حد الذوبان أو أن يقعد بها الانغلاق مقعد التقوقع بل إنها التحمت بالحضارة الإسلامية التي كانت لها نظرتها الخاصة إلى الكون والحياة ومنظومتها القيمية الشاملة وخصوصياتها الثقافية المتميزة التي أسهمت بها في بناء الحضارة الإنسانية وهو ما شهد به الباحثون والمفكرون الغربيون الذين تحدثوا عن فاس وجامعتها.

لقد تبلورت في مدينة فاس من خلال جامعة القرويين معالم الحضارة العربية والإسلامية التي تفتقت بالمغرب فتلألأت أشعتها في أوروبا، واحتفظت بذلك الإشعاع لمدة قرون عديدة، فقد كان بها في أواخر القرن الرابع الهجري مدرسة صغيرة للطب، وأحيلت المدرسة المرينية بدار المخزن في فاس الجديد حوالي عام 1844 م إلى مدرسة للمهندسين عمل السلطان محمد الرابع فيما بعد على أن يبعث طائفة من خريجيها إلى الخارج لتلقي العلوم الرياضية ليكونوا سندا حيا للعلوم في جامعة القرويين وذلك سعيا إلى تلقيح العلوم الرياضية التي توارثتها القرويين جيلا بعد جيل بما يبعث فيها الجدة والنشاط ومسايرة التطورات الحديثة.

وذكر رينو Renau أن مدينة فاس تعتبر مهد الحضارة الإنسانية التي جلبت العلماء والطلبة من العالم أجمع وهي بالنسبة للإسلام مثل أثينا بالنسبة لأوروبا حيث كانت تدرس جميع العلوم والفنون والآداب[21].

وتحدث **روم لاندو** عن القرويين فقال: "لقد كان العلماء في القرويين منذ حوالي ألف سنة يعكفون على المباحثات الدينية والمناظرات الفلسفية التي قد تتجاوز دقتها إدراك فكرنا الغربي، وكان المثقفون يدرسون التاريخ والعلوم والطب والرياضيات ويشرحون أرسطو وغيره من مفكري الإغريق"[22].

ولعل من أبرز الشواهد التي تؤكد وتبرز دور القرويين في بناء الحضارة الإنسانية ما ذكره بعض الباحثين الغربيين من أنها كانت مقصدا لأحد العلماء الأوروبيين وهو **جير**

20– ذلك ما تم عن طريق البعثات العلمية إلى فرنسا وإسبانيا وإيطاليا خاصة في عهد السلطانيين محمد الرابع والحسن الأول.

21– رينو: الطب القديم بالمغرب، نشرة معهد الدروس العليا بالرباط– العدد الأول ص 77 .

22– روم لاندو: حول القرويين . مجلة رسالة المغرب، 11 يونيو 1951 .

بير **Gerbert** الذي تقلد منصب البابوية فيما بعد وأصبح يعرف **بالبابا سلفستر**، ويذكر أنه أول من أدخل إلى أوروبا **الأعداد العربية** وطريقة الأعداد المألوفة في أوروبا بعد أن أتقنها جيدا في القرويين(23).

أما الأوروبيون الذين وردوا على القرويين لتعلم اللغة العربية فهم كثيرون ذكر منهم **الدكتور عبد الهادي التازي القسيس نيكولا كلينار** المدرس بجامعة لوفان Louvain ببلجيكا حيث كان بفاس عام (947هـ-1540م) وكذا الهولندي جوليبيس Golius الذي حمل معه من فاس نسخة من كتاب ابن بكلارش في الطب المؤلّف في النصف الأول من القرن الخامس(24).

لقد كان من علماء القرويين من وقع عليهم الاختيار ليكونوا سفراء دبلوماسيين إلى بعض المدن في جنوب أوروبا مثل غرناطة وبولونيا ، فكانت تلك السفارات فرصة لنقل بعض العلوم والمعارف إليها والتعريف بتقاليد الإسلام والمسلمين، وينقل التاريخ أيضا إسهام ابن الوزان المعروف بليون الإفريقي صاحب كتاب (وصف إفريقيا) في تعريف الأوروبيين بفاس وجامعتها وعلومها وبذلك تكون القرويين قد ساعدت على تنمية البحث العلمي في أوروبا وأسهمت في إرساء بذور الحضارة الأوروبية عن طريق علمائها أمثال ابن البنا المراكشي العددي (ت723 هـ) الذي ظل كتابه "تلخيص أعمال الحساب" أحد المصادر المعتمدة في أوروبا وتمت ترجمته عام 1864م، وابن أجروم النحوي (ت723 هـ) الذي طبعت مقدمته الأجرومية في أوروبا مرات عديدة وترجمت إلى مختلف اللغات وكثر الحديث عنها حتى قيل إن كلمة GRAMMAIRE مشتقة من آجروم، أما في الطب والفلسفة فأمثال ابن طفيل (ت581هـ) وابن زهرAvenzoar (ت 596هـ) وابن باجة Avampace (ت 533 هـ) وابن رشد Averroes (ت595هـ) قد أسهمت كتبهم ونظرياتهم العلمية والفلسفية بقوة في الدفع بالحركة العلمية بأوروبا إلى الأمام والنهوض بأسس الحضارة الإنسانية.

23- E . H. Vollet/ Sylvester 2 ou Gelbert in la grande Encyclopédie.

24- الدكتور عبد الهادي التازي، جامع القرويين ، 419/2. مرجع سابق

تدريس العلوم الإسلامية في القرويين عبر العصور:

تستمد جامعة القرويين أهميتها ومكانتها من عدة عوامل يأتي في طليعتها ريادتها في تأسيس العلم الشرعي بجميع روافده، حتى إنه لم يكن معدودا من العلماء من لم يأخذ العلم عن شيوخ وأساتذة القرويين الذين كان لهم أكبر الفضل في ترسيخ أسس وقواعد العلوم الإسلامية وتنقيحها وتهذيبها.

وقد اتخذت المادة العلمية المدروسة بالقرويين اتجاها مالكيا من حيث الفقه الإسلامي منذ العقود الأولى لتاريخ القرويين، ففي عهد الأدارسة وردت الطلائع الأولى لمذهب الإمام مالك وتعزز ذلك بمناصرة ملوك وسلاطين المغرب للمذهب الجديد والسعي إلى ترسيخ معالمه في البلاد، واستمر المذهب المالكي في ازدهار وانتشار كبيرين طوال العهد المرابطي لكن الأمراء الموحدين بعد أخذهم لزمام الأمور في المغرب دعوا إلى مباشرة الأخذ من أصول التشريع الإسلامي وفتح باب الاجتهاد وتجاوز المذهب المالكي، وبالرغم من هذه الدعوة الجديدة فقد اهتم الموحدون بسائر العلوم والفنون وشجعوا الحركة العلمية التي أسهم فيها بقوة العلماء النازحون من الأندلس.

بيد أن الموحدين لم يستطيعوا الصمود أمام حملات المرينيين الذين ما إن استتب بهم الأمر حتى دعوا إلى الرجوع إلى مذهب الإمام مالك وحرصوا من أجل ذلك على إنشاء المدارس التعليمية التي أسهمت بدورها في ترسيخ معالم المذهب ونشره والانتصار له. ويعتبر العهد المريني من أزهى فترات القرويين على مستوى تنوع العلوم والفنون الإسلامية المدروسة بها، فقد كانت الجامعة في هذا العهد والعهود اللاحقة جامعة بين علوم الدين والدنيا مما جعل أهل المغرب والأقطار المجاورة يلتفون حولها ويرابطون حول كراسيها ويتزودون من علومها وفنونها المتنوعة، وبفضل كفاءة علمائها وأساتذتها الذين تولوا التدريس برحابها والذين تعدى إشعاعهم حدود المغرب العربي إلى الأندلس وبلدان أوروبية وإفريقية أخرى تمكنت القرويين من حمل أمانة العلم بقوة وعزم متحدية الصعاب وصامدة في وجه التحديات خلال تاريخها الطويل.

ويأتي الفقه الإسلامي على رأس العلوم المدروسة بالقرويين نظرا لتأثر القرويين بالمذهب المالكي فقد كان الاشتغال بالفروع الفقهية مهيمنا وسائدا على باقي العلوم، ولم يشذ الأمر سوى في عهد الموحدين الذين انقطع في عهدهم علم الفروع والخلاف العالي بعدما أمروا بإحراق أمهات الكتب الفقهية والدعوة إلى الرجوع إلى الأصول، غير أن ذلك اعتبر

في واقع الأمر لقاحا جديدا رد المغاربة إلى الأصول لمناقشة الفروع في ضوئها فصار الفقه يعتمد الأدلة وينظر في الخلاف العالي.

وقبل ظهور مختصر الشيخ خليل (ت776هـ) كانت مدونة سحنون ونوادر ابن أبي زيد القيرواني (ت386هـ) وكتاب التهذيب للبرادعي (ت373هـ) وكتاب ابن يونس (ت451هـ) وواضحة ابن حبيب(ت238هـ) أبرز الكتب المتداولة في رحاب القرويين والمدارس الملحقة بها، لكن بعد ظهور المختصر وإعجاب المغاربة به تفنن الفقهاء في شرحه والتحشية عليه وأضحى المعول في الدراسات الفقهية يدور حول تلك الشروح والحواشي.

وفي مجال التفسير وعلومه كانت هناك كراسي خاصة بالتفسير ، وكان تفسير الثعلبي (ت427هـ) من أبرز التفاسير المقررة إلى جانب تفسير الزمخشري (ت538هـ) وتفسير الرازي (ت606هـ) وتفسير البيضاوي(ت685هـ) بالإضافة إلى تفسير ابن عرفة (ت803هـ) والدر المنثور للإمام السيوطي(ت94هـ)، وجرت العادة أن تُعطى دروس التفسير صباحا تبركا بها.

ويبدو أن الاهتمام بعلم التفسير كان أقل مما حظي به الفقه والنحو ، فعلماء فاس وإن فاقوا غيرهم في بعض العلوم والفنون إلا أنهم لم يبرزوا في تأليف. ودراسة كتب التفسير، وهكذا لا نكاد نعثر سوى على قلة قليلة من علماء القرويين الذين سمت هممهم وتاقت عزائمهم إلى الخوض في علم التفسير الذي استصعب التصنيف فيه كثير من العلماء حتى قال الإمام الونشريسي (ت914هـ) في كتابه (المعيار المعرب) "والحق أن تفسير القرآن من أصعب الأمور، فالإقدام عليه جرأة ".

أما علوم القرآن من تجويد وقراءات ورسم فلم يبرز الاهتمام بها بصورة واضحة سوى في العهد المريني والعهود التالية وللإشارة، فقد أسس أبو الحسن المريني عام 721 مدرسة خاصة بعلم القراءات سميت مدرسة السبعيين لأنه كانت تدرس بها القراءات السبع، وهذا دليل قوي على مدى الاعتناء التام الذي عرفته القرويين والمدارس المرينية خصوصا بهذا العلم الجليل، وممن اشتهر بالتأليف والإقراء في هذا المجال من علماء القرويين ابن بري التازي (ت731هـ) صاحب منظومة "الدرر اللوامع في مقرأ الإمام نافع" وأبو عبد الله الخراز (ت 718هـ) صاحب أرجوزة "مورد الظمآن في رسم القرآن". وقد طبقت شهرة هاتين المنظومتين الآفاق، ولا تزالان إلى اليوم العمدة الأساسية في قراءة نافع ورسم القرآن.

واشتهر في العصر الوطاسي الإمام ابن غازي (ت919هـ) الذي برع في علم القراءات وألف فيها كتبا كثيرة. اشتهر في العصر العلوي الإمام أبو زيد ابن القاضي



(ت1082) وابن عبد السلام الفاسي (ت1214) اللذان ذاع صيتهما في مجال علم القراءات[25].

أما في الحديث وعلومه فكان التدريس في هذا المجال العلمي يعتمد كتب الصحاح والسنن مثل صحيح البخاري (ت256) ومسلم (ت261هـ) وجامع الترمذي (ت 279هـ) وموطأ الإمام مالك بن أنس (ت179هـ)، والجدير بالملاحظة أن علماء القرويين في بعض العهود كانوا يفضلون صحيح مسلم على صحيح البخاري، غير انه على مستوى الشروح كان الاعتماد منصبا على شرحي ابن حجر(ت 752هـ) وبدر الدين العيني (ت855هـ) على صحيح البخاري، وتم التركيز أيضا على ألفية العراقي (ت806هـ) في علم الحديث وشهاب الأخبار للقضاعي (ت454هـ) والترغيب والترهيب للمنذري (ت656هـ) والتسهيل والتقريب والتصحيح لرواية الجامع الصحيح لابن الرصاع (ت894هـ)، وكانت كراسي هذه الكتب الحديثية موزعة بين القرويين وجامع الأندلس وبعض المدارس الملحقة.

أما في علوم اللغة والنحو فقد كان التدريس يعتمد كتاب الأماني مع الكامل للمبرد (ت285هـ) وكتاب سيبويه (ت180هـ) وألفية ابن مالك (ت673هـ) والتسهيل له أيضا وشرح أبي الطيب الشرقي على القاموس في العصور المتأخرة. وتم تدريس **الأدب** بمقصورة ابن دريد وبكتاب الحماسة وشرحه لابن زاكور في العصور المتأخرة.

وفي علم الأصول كان الاعتماد الرئيس على كتاب ابن السبكي الشهير "جمع الجوامع" مع شرحه للجلال المحلي (ت864هـ)، أما في علم المنطق وعلم الجدل، فكان المعتمد فيهما كتاب ابن الحاجب (ت646هـ) "منتهى الوصول والأمل في علمي الأصول والجدل". أما في علم التوحيد فكان كتاب أم البراهين للسنوسي (895هـ) أهم مراجعه المقررة في التدريس.

أما الطب فقد ازدهرت دراسته بفاس وخاصة بالقرويين منذ وقت مبكر، إذ يحدثنا التاريخ عن وجود مدرسة طبية بفاس خلال القرن الهجري الرابع[26]، وقد تحدث ابن ميمون الغماري (ت917هـ) عن فائدته فقال: "ما رأيت مثلها ومثل علمائها في حفظ نصوص كل علم مثل النحو والفرائض والحساب والمنطق والتوحيد والطب.. وسائر العلوم العقلية"[27] وكانت أهم الكتب الطبية التي درسها علماء القرويين كتاب الكامل للرازي والقانون لابن سينا وزبدة الطب للجرجاني وكليات ابن رشد وتذكرة الأنطاكي ومفردات ابن البيطار وغيرها.

25- سعيد أعراب : القراء والقراءات بالمغرب ، طبع دار الغرب للإسلامي ببيروت 1990 ص ص 93-109.

26- عبد العزيز بنعبد الله : الطب والأطباء في المغرب، الرباط بدون تاريخ ص 15.

27- نقل ذلك الكتاني في سلوة الأنفاس السالف الذكر 4/1 .



ومن العلماء الذين درسوا الطب سليمان الفشتالي واحمد بن محمد بن الحاج وغيرهما. وذكر (رينو) أن علم الطب كان يدرس في جامعة القرويين بواسطة كتب إبقراط وجالينوس.

ومما يجدر ملاحظته أن علم الطب كان مشاعا بين طبقة من الفقهاء والمحدثين والأدباء الذين ساهموا في التأليف في هذا الحقل المعرفي، منهم الإمام السنوسي شارح البخاري الذي وضع شرحا على رجز ابن سينا في الطب.

أما مجال الرياضيات وعلم الحساب فقد اهتم به علماء القرويين وألفوا فيه وشاع عند الموثقين استعمال القلم الفاسي وهو عبارة عن أرقام حسابية استعملها الموثقون بفاس في تقييد التركات وتقدير النفقات وهي من أصل روماني انتقلت من وليلي إلى فاس ثم نسبت إليها، واشتهر بالهندسة والحساب بفاس ابن السكاك الفاسي (ت500هـ) وأبو عمران بن أبي شامة (ت599هـ) وأبو الحسن علي بن فرحون (ت602هـ) وهو مؤلف كتاب "اللباب في مسائل الحساب"، وابن الياسمين الفاسي(ت601هـ) صاحب منظومة الجبر والمقابلة وغيرهم[28].

النظام الدراسي في القرويين:

عرفت القرويين حلقات علمية منذ أيامها الأولى، وكانت طريقة التدريس على شكل مجلس يتخذ صورة طبق الأصل للمجالس العلمية المعروفة منذ صدر الإسلام وهي تتميز بجلوس الطلبة أمام الشيخ يحيطون به ومع مرور الزمن والإقبال المتزايد للطلبة على سماع الدروس تم استعمال الكراسي للاستعانة بها وهو تقليد نقله المغاربة عن الشرق عندما كانوا يرحلون للحج أو لطلب العلم، وهو ما نقله ابن بطوطة عندما وصف نظام التدريس بالمدرسة المستنصرية ببغداد[29]. وقد برزت ظاهرة الكراسي العلمية في البداية بجامع القرويين وفروعه في عهد المرينيين نتيجة ازدهار الفكر والثقافة، ثم انتشرت في باقي المدارس والمساجد، وقد كانت ولاية الكراسي العلمية بالقرويين ولاية رسمية كولاية القضاء والفتيا، ولا يسند السلطان أو من يقوم مقامه هذا المنصب إلا لمن توفرت فيه مؤهلات وخصائص علمية متميزة، ونظرا لأهميتها وقيمتها فقد كانت لها أوقاف خاصة صادرة عن الملوك

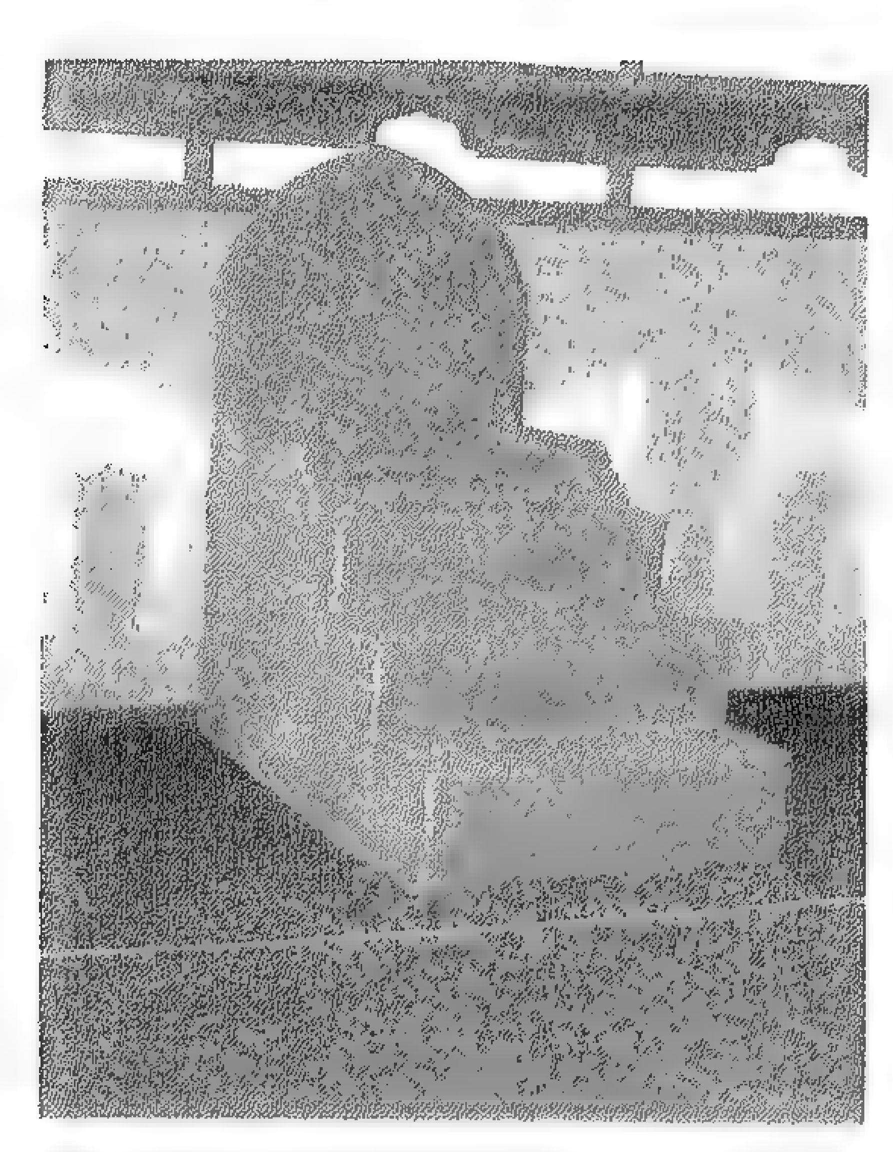
28- عبد الله كنون: النبوغ المغربي في الأدب العربي الطبعة الثانية ، بيروت 1961 87/1.

29- شمس الدين أبي عبد الله محمد بن عبد الله اللواتي الطنجي ابن بطوطة: رحلة ابن بطوطة المسماة تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، طبعة أكاديمية المملكة المغربية سنة 1417هـ/1997م، رقم الإيداع 1997/320، قدم له وحققه ووضع خرائطه وفهارسه الدكتور عبد الهادي التازي.



والأمراء والمحسنين شملت وقف عقارات وأملاك على العلماء والأساتذة الذين يتصدرون للتدريس ويتعاقبون على تلك الكراسي باستمرار.

ولم تكن الكراسي العلمية في عهد المرينيين مختصة بالجامعة الأم فحسب بل كانت كثير منها موزعة على بعض فروعها حتى انه قدر عددها بحوالي مائة وأربعين كرسيا فضلا عن كراسي الوعظ والإرشاد التي يقصدها الحرفيون من صناع وتجار وعمال بعد صلاة الصبح قبل انصرافهم إلى أعمالهم وفي المساء أيضا بعد رجوعهم منها[30]. ونكر بعض المؤرخين أن أصحاب الحرف قد أضحوا بفضل ترددهم على هذه الكراسي ومواظبتهم على الاستماع إلى الدروس ملمين بدقائق المسائل في التفسير والحديث والفقه.



ويبدو أن هذه الكراسي كانت مختلفة ومتنوعة فمنها ما هو مشاع ومنها ما ينسب إلى أشخاص معينين من كبار العلماء. ولا يفهم من هذا أن الكرسي الذي ينسب إلى صاحبه يظل معطلا بعد فراغ صاحبه من إلقاء درسه عليه بل إن التناوب عليه من طرف الأساتذة والعلماء يبقى مستمرا فالطلبة الذين كانوا يعدون بالمآت لم يكونوا يعرفون للراحة سبيلا في كل أوقات النهار، فهم لا يفترون عن التنقل من كرسي لآخر ومن درس إلى درس على ما ذكره بعض المؤرخين الذين عاينوا وشاهدوا ذلك عيانا. وبالرغم من ذلك فإن بعض الكراسي التي حبست على أصحابها كان لها وضع خاص، فأحباسها وأوقافها تختص بها دون غيرها، كما أن العلوم والفنون التي تدرس عليها تكون محددة ومعينة وهي في الغالب موجهة لذوي التخصص من الطلاب في المستويات النهائية.

---

[30]– الدكتور عبد الهادي التازي، جامع القرويين 370/2، مرجع سابق.

وذكر ابن الوزان (ت926هـ) في كتابه وصف افريقيا[31] أن هذه الكراسي تمتد على طول الجدار الغربي والشرقي للجامع بعيدا عن وسط القرويين. وبقي هذا الوضع قائما إلى أوائل القرن العشرين حسبما **أوضحه الدكتور عبد الهادي التازي في كتابه جامع القرويين** حيث ذكر أن "الفارق بين ما كان منها هنا أو هناك أن كراسي الناحية الجنوبية تختص بالدراسات العليا وكراسي الجدار الشرقي والشمالي للدروس الثانوية وكراسي الجدار الغربي للدروس الأولية"[32].

وقد اختلفت أسماء الكراسي العلمية بالقرويين بين أسماء أماكن معينة برحاب القرويين وأسماء العلماء وأسماء تعلقت بالعلوم المختصة بها.

فمن الكراسي العلمية التي حملت أسماء أماكن ومواضع خاصة داخل القرويين، كرسي المحراب الذي يرجع إلى أوائل العهد المريني وكان يدرس فيه تفسير الثعلبي (ت427هـ) والحلية لأبي نعيم الأصفهاني (ت 430هـ) وإحياء علوم الدين للغزالي (ت 505هـ)، ثم أضاف إلى ذلك السلطان أبو عنان المريني كتاب الشفا للقاضي عياض (ت 544هـ).

وهناك كرسي باب الشماعين الذي كانت تدرس فيه رسالة ابن أبي زيد القيرواني (ت 386هـ) وهناك كرسي باب الصالحين الذي وقف على دراسة العمدة للعيني (ت 855هـ) كل صباح وكتاب الترغيب والترهيب للمنذري (ت656هـ) بعد الظهر ورسالة ابن أبي زيد القيرواني بين العشاءين.

ومن ذلك أيضا كرسي باب الحفاة الواقع يمين الداخل من باب الحفاة وكان من رجال هذا الكرسي الشيخ يحيى السراج (ت1007هـ) الذي خلفه الإمام أحمد المنجور (ت995هـ)، ومما درس على هذا الكرسي علم التفسير وشرح منظومة ابن زكري (ت899هـ) في التوحيد فضلا عن رسالة ابن زيد القيرواني.

أما كرسي ظهر الخصة فيرجع إلى عهد المولى إسماعيل السلطان العلوي وكان يوجد في يمين الداخل إلى المسجد من باب العمدة. ومن مميزاته انه كان يستمع إليه النساء المتفقهات حيث كن يشرفن عليه من الرواق الخاص بهن في مستودع ابن عباد، ومن الكتب التي درست عليه الرسالة لابن أبي زيد والحلية لأبي نعيم والاكتفاء في السيرة للكلاعي، وقد أحيى السلطان المولى سليمان (ت 1238هـ) هذا الكرسي وأسنده للعلامة حمدون ابن الحاج (ت1232هـ).

31- وصف إفريقيا لابن الوزان دار الغرب الأسلامي ط 1983/2- ص 185.

32- الدكتور عبد الهادي التازي، جامع القرويين 2/ 371. مرجع سابق



ومن الكراسي التي نسبت إلى أفراد من كبار العلماء ، كرسي ابن غازي (ت919هـ) وكرسي الإمام عبد العزيز الورياغلي (ت 880هـ) وكان يدرس عليه علم التفسير صباحا وصحيحا البخاري ومسلم بين العشاءين ومختصر ابن الحاجب (ت 646هـ) بعد الظهر والترغيب والترهيب للمنذري بعد العصر، وممن تعاقب عليه من العلماء ابن غازي وأبو القاسم بن سودة (1004هـ) وابن القاضي (ت1006هـ) ويحيى السراج (ت1007هـ)، والتاودي بن سودة (ت 1209هـ) وغيرهم.

أما كرسي الونشريسي (ت 955هـ) فكان مخصصا لدراسة صحيح البخاري بشرح ابن حجر ومختصر ابن الحاجب وحكم ابن عطاء الله وتفسير ابن عرفة، وكان هذا الكرسي معروفا بكونه من أغنى الكراسي نظرا لكثرة العقارات والأملاك التي حبست عليه[33].

وبالإضافة إلى الكراسي العلمية عرفت رحاب القرويين مجالس علمية أخرى لم ترق إلى درجة الكراسي لكن كانت أهميتها تتجلى في العدد الضخم من الطلبة الذين كانوا يقصدونها، غير أنه إذا كثر العدد إلى الحد الذي يصعب معه مباشرة التدريس بصورة مفيدة فإن العالم المدرس يضطر عندئذ إلى الانتقال إلى الكرسي. وقد درس بهذه المجالس الأرضية كبار علماء فاس أمثال الشريف التلمساني ويحيى السزاج(ت1007هـ) وابن القاضي (ت1082هـ) وعبد الكريم اليازغي (ت1199هـ) وأبي القاسم بن سودة وغيرهم.

ولم يكن أمر الكراسي العلمية والمجالس الأرضية مقتصرة على القرويين فحسب، بل كانت الظروف أحيانا تفرض الانتقال إلى فروع القرويين من مدارس وغيرها لإنشاء مجموعة من الكراسي بهدف التخفيف عن الجامع الأم من جهة ومن أجل تقريب سبل العلم من سكان المدينة في مختلف الدروب والأحياء من جهة أخرى. ومن أشهر هذه الكراسي كرسي المدرسة المصباحية الذي كان مخصصا للفقه والنحو وكرسي مدرسة الحلفاويين (تعرف أيضا بمدرسة الصفارين) وكانت لهذه المدرسة خزانة علمية عظيمة. وكرسي مدرسة العطارين المخصص للفقه والنحو وقد درس عليه العالم الرياضي المشهور ابن البنا المراكشي (ت 723هـ) وكراسي مسجد الأندلس ،وهي كراسي متعددة لأن مسجد الأندلس ظل المركز الثاني للتدريس بعد القرويين، كما ظل محل تنافس بين كبار العلماء الذين كانوا يرحلون إليه من القرويين قصد الفوز بدرس فيه. وهناك كراسي أخرى صغيرة ذكرها الدكتور عبد الهادي التازي في كتابه "جامع القرويين"[34]. ولا شك أن كثرة الكراسي العلمية

33- الكتاب الذهبي لجامعة القرويين في ذكراها المائة بعد الألف .1379هـ/1960 ص 165.

34- الدكتور عبد الهادي التازي، جامع القرويين 384/3 –402 مرجع سابق.

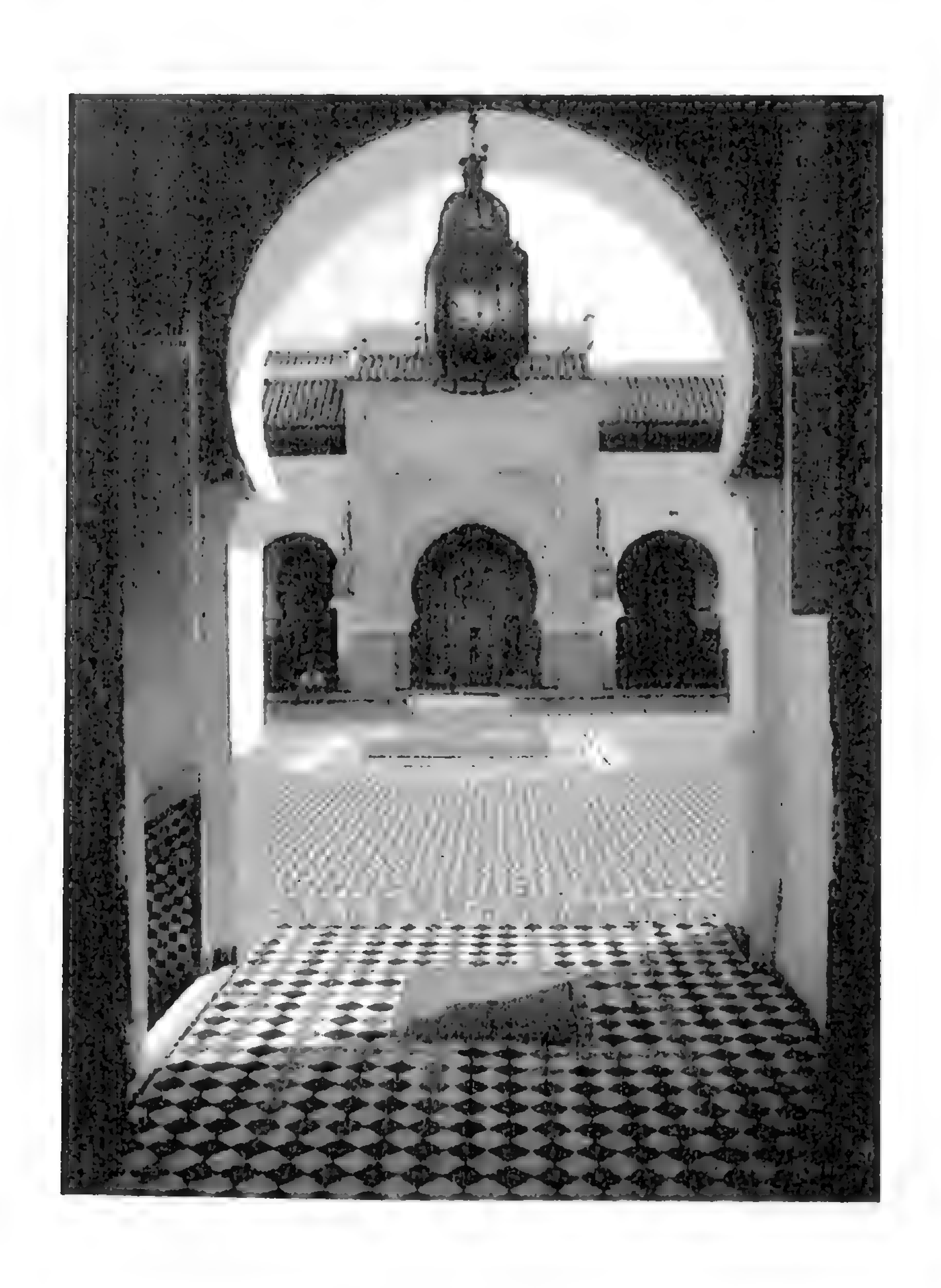
التي عرفتها جنبات القرويين وفروعها تعبر بوضوح عن واقع النهضة العلمية ومدى الإشعاع الثقافي والفكري الذي عرفته القرويين جامعا وجامعة.

أما عن طرق التدريس التي عرفتها القرويين فقد كانت في جلها طرقا تقليدية تؤدي فيها الذاكرة الدور الرئيس، حيث يعمد أحد الطلبة إلى قراءة نص الكتاب المقرر قراءة حسنة وبصوت مرتفع ثم يعيده الأستاذ المدرس بتأن شارحا عباراته شرحا لغويا وبلاغيا مع الإعراب والتحليل ثم يفسر المدلولات العلمية والاصطلاحية وما ترمي إليه من معان مختلفة، وبعد ذلك يستقرئ مختلف الشروح والحواشي والتعليقات التي وضعها العلماء القدامى مع مناقشتها والمقارنة بينها، ويعتبر دولفانDelphin هذه الطريقة خاصة بعلماء القرويين، وهي ممتازة في نظره، لأنها تقضي بعرض شتى المصادر الأساسية ومقارنة بعضها ببعض مع استهداف إنماء روح التدقيق والملاحظة والاستقصاء لدى الطالب،ولم يكن الأستاذ مقيدا عمليا- بزمن محدد أو بمراقبة إدارية وإنما كان يشرع في دراسة الكتاب من أوله إلى آخره دون تقيد بوقت محدد، وقد يتريث أو يسرع في ذلك حسب مقدرة فهم الطلبة ومستوى إدراكهم. واستمر نظام" التعليم بالمتون وشروحها "منذ العهد المريني إلى يومنا هذا في جميع مراحل التكوين ،حيث كان الهدف هو إعداد رجال علماء بالشريعة الإسلامية وأصولها وما يرتبط بها من علوم وفنون.

أما من حيث التقييم التربوي والدراسي لمستويات الطلاب ومدى استيعابهم للدروس فقد كانت هناك اختبارات لتفقد أحوال الطلبة لمعرفة قوة الذاكرة وحصافة الرأي ومدى حفظ واستظهار الكتب والنصوص، ولم تكن مثل هذه الاختبارات مؤدية للحصول على شهادة من الشهادات أو تحديد مستوى دراسي معين كما هو الشأن في الدراسات الحديثة، وكل ما في الأمر أن الأستاذ يحق له أن يمنح الإجازة للطالب الذي تابع دروسه لمدة معينة أو أبان عن كفاءة وتميز في مادة علمية محددة، ويسمح التوفر على إجازة أو إجازات علمية بالتصدي للتدريس بمساجد فاس بعد اجتياز امتحان أمام عدة شيوخ في مواد مختلفة وإلقاء درس رئيس في مادة أو أكثر، وتختلف الإجازات العلمية باختلاف الأساتذة المانحين ومستويات ومدارك الطلبة الحاصلين عليها.

المبحث الثالث:

تدهور القرويين والنهوض بها





أسباب تدهور القرويين:

يعلم تدهور قيمة القرويين من نواحي تأثيرها الفكري والاجتماعي وتحسيسها ونشر سلامها.

وبالتالي يمكن أن نرجع تدهور القرويين لعدة أسباب، أول الأسباب هو ما تعرضت له البلاد المغربية من **هجومات** من طرف بعض الدول الأوربية التي كانت تسعى للهيمنة على المغرب، تلك الهجومات أثرت بالفعل على سير الحركة الفكرية في المغرب بحيث إن كثيرا من العلماء كانوا يفضلون أن يشاركوا في معارك الجهاد عوض أن يبقوا في ساحة التعليم، لأنهم يعتبرون أن الدفاع عن الحوزة، الدفاع عن البلاد، الدفاع عن الدين يتقدم على كل شيء.

من هنا ابتدأ تدهور القرويين فيما كانت تنتجه من علماء ومن رجال؛ وأن بعض المؤرخين عندما يتحدثون عن هذه القرويين، في هاته العصور، يدعون لها بكلمة ربما لا نعرف وزنها ولكنها كلمة لها دلالة قوية؛ عندما يقولون "القرويين عمرها الله" يعني أنها في طريق التدهور وأنها في طريق الفراغ، وهم يتوسلون إلى الله أن يعمرها بالعلماء وبالطلبة.

والسبب الآخر مما زاد في التدهور؛ **قلة الميزانية** والتصرف في الميزانية الضخمة التي كانت تتمتع بها جامعة القرويين، وكانت القرويين تتوفر على ميزانية ضخمة غنية، لدرجة أن الدولة كانت تستقرض وتسلف من هذه الميزانية وتتصرف فيها، هذا **السبب المادي** تأثرت به المجالس العلمية، تأثر به العلماء، تأثر به الطلبة الذين كانوا يلقون التشجيع الكامل من الميزانية التي كانت تتمتع بها.

والسبب الثالث، هو أن المغرب تعرض لظروف محنة، كثرت فيها الفتن وكثر فيها الاضطراب، فكان ذلك سببا لهجرة بعض العلماء خارج المغرب، وبلداننا تشتكي الآن من هجرة الأدمغة، وعلى حد قول الدكتور عبد الهادي التازي أن هجرة الأدمغة ابتدأت من الظروف الحالكة التي كان يعيشها المغرب.

هذه الأسباب الثلاثة، هي التي كانت وراء هذا التدهور، وكانت وراء محدودية العطاء التي كانت تقدمه، ومع ذلك فالدكتور ليس بمتشائم التشاؤم كله، ويقول إن القرويين مع كل تلك الظروف بقيت محتفظة مصرة على أداء دورها الذي كان لها في الماضي.

تراجع القرويين في استقطاب طلبة العالم:

إن المصلحة تقتضي من الطالب أن يبحث عن السوق الذي يروج فيه بضاعته، القرويين بسبب ما اعترى المغرب من تدخلات أجنبية، وبسبب أنه أصبح مطلوبا بأن يتشبع بالثقافة الأوربية وبالثقافة الغربية، أصبح الطلبة يبحثون عن مجالات أوسع، أصبح الطلبة يبحثون عن معاشهم، وعما يضمن لهم العيش في ميادين أخرى، فمجاورتنا مع الدول الأوروبية القريبة منا، اقتضت من هؤلاء الطلبة أن يبحثوا عما يضمن لهم العيش الكريم، والحصيلة العلمية المعاصرة. والعولمة ابتدأت من قبل هذه الظروف، عندما أخذ الناس يشعرون بأن البضاعة التي تقدمها لهم القرويين بضاعة ينبغي أن ينظر فيها من جديد.

إصلاح نظام التعليم بجامعة القرويين:

عرفت بعض الفترات التي تلت عهد المرينيين وخاصة في صدر الدولة العلوية جمود أسلوب الدراسة والتعليم بالقرويين وخمود الحركة الفكرية الحرة التي سبق أن بثها المرينيون بقوة في أرجاء المغرب. وبقي الأمر كذلك إلى عهد السلطان العلوي سيدي محمد بن عبد الله (ت1204هـ) الذي سرعان ما فطن إلى خطورة ما آلت إليه أوضاع التعليم بالقرويين من انحدار وتدهور، فعمد إلى التفكير في سبل إصلاح واقع الدراسة والتكوين بالجامعة.

ويمكن القول بأن السلطان محمد بن عبد الله هو أول من أرسى حجر الأساس لإصلاح النظام الدراسي بجامعة القرويين، فهو أول من فكر في إصلاح نظام التعليم، حيث أصدر منشورا سلطانيا عام 1203هـ/1789م يحدد بموجبه المواد الدراسية والكتب التي ينبغي الاقتصار على تدريسها مع تحديد مصادر كل مادة ومراجعها ناهيا عن دراسة كتب التوحيد المؤسسة على الجدل الكلامي والرجوع بالمقابل إلى مذهب السلف في الاعتقاد. وهكذا أمر السلطان بتدريس القرآن بمختلف التفاسير والحديث بصحيحي البخاري ومسلم والمسانيد، وفي مجال الفقه أمر بالاقتصار على المدونة والبيان والتحصيل والمقدمات لابن رشد الجد (520هـ)، والجواهر لابن شاس والرسالة لابن أبي زيد القيرواني ومختصر خليل بشرح بهرام الكبير(805هـ) والمواق والحطاب والخرشي الكبير لا غير[35].

35- للناصري الاستقصا - دار الكتاب بالدار البيضاء 1954- 67/8.

أما في مجال السيرة النبوية فيدرس بكتاب الاكتفاء للكلاعي وعيون الأثر لابن سيد الناس اليعمري، في حين يدرس النحو بكتاب التسهيل والألفية لابن مالك، أما المتفرغ لعلوم الفلك والحساب فعليه أن يأخذ حظه من علم التوقيت لما في ذلك من المنفعة العظيمة لأوقات الصلاة والميراث. ومع إبداء السلطان شكوكه في جدوى دراسة علوم الفلسفة، فقد أكد على أهمية تحصيل علوم الحساب والرياضيات والهندسة ولذلك عمد إلى توجيه بعثات علمية من أبناء القرويين إلى أوروبا لاستكمال دراستهم في هذه العلوم، وتوالى أمر الابتعاث في عهد السلطانيين الحسن الأول والمولى عبد العزيز وغيرهما.

لقد نص المنشور السلطاني على إصلاح جوهري للمواد المدروسة بجامعة القرويين مسندا الأسبقية للعلوم الدينية ومنددا بما تعوده الأساتذة والعلماء من هجر المؤلفات الأصلية واعتماد الملخصات والمختصرات والشروح التي لا تزيد مع الزمن إلا إجحافا بالمعاني الأصلية والحقيقية. وتدعيما لبرنامجه الإصلاحي عمد السلطان محمد بن عبد الله إلى بناء المدارس والمعاهد وترميم ما تداعى منها للخراب، وسار على نهجه في كل ذلك نجله السلطان المولى سليمان (ت1238هـ) حيث عرفت النهضة العلمية في عهده حركة ونشاطا دائبين، وهو ما أكده في ذلك الوقت المؤرخ الإسباني Badia Le blich باديا ليبليش الذي زار مدينة فاس عام 1217 وقال عنها:"إن فاسا كانت في إفريقيا من حيث مركزها الثقافي تحاكي أثينا في أوروبا "[36].

ولم يقف إصلاح النظام الدراسي والتعليمي بالقرويين عند الحد الذي رسمه السلطان محمد بن عبد الله، فقد فتح ملف الإصلاح مرة أخرى مع السلطان عبد الرحمن بن هشام الذي أمر بإعادة تنظيم التعليم وترتيب الدروس وذلك من خلال خطاب وجهه لشيخ القرويين عام (1261-1885م) انتقد فيه سير بعض الدروس بالقرويين في ذلك العهد داعيا الأساتذة إلى التجديد في المناهج والمواد المدروسة[37]، وفي عهد السلطان المولى يوسف صدر الأمر بتأسيس مجلس للنظر في شؤون القرويين ووضع برنامج للدراسة فيها وكان من أهم ما اشتمل عليه ما عد حدثا جديدا في تاريخ القرويين وهو تقسيم مناهج الدراسة إلى ثلاثة أقسام: ابتدائي وثانوي ونهائي مع إقرار نظام الامتحانات، غير ان تطبيق البرنامج الجديد كان متعثرا، ولم يكتب له النجاح إلا في عهد السلطان محمد الخامس الذي أصدر ظهيرا عام 1349-1931 كلف فيه المجلس الأعلى بالنظر في سن ضابط ينظم التعليم بالقرويين ويصلح

36- الدكتور عبد الهادي التازي، جامع القرويين 726/3، مرجع سابق.

37- ابن زيدان، الدرر الفاخرة في مآثر العلويين بفاس الزاهرة، ص 80.

طرقه ومناهجه، وهو ما صدر عام 1933 متضمنا عدة فصول تتحدث عن العلوم والفنون الواجب تدريسها في الأطوار الثلاثة ، ومدة الدراسة التي تحددت في اثني عشر عاما، ثلاثة منها للابتدائي وستة للثانوي وثلاثة للنهائي (التعليم العالي) مع إحداث شعبة أدبية إلى جانب الشعبة الدينية في التعليم النهائي، وتتوج المرحلة الأخيرة بعد النجاح في الامتحان النهائي بشهادة العالمية .

وتحدث الضابط المسنون عن إضافة مواد جديدة كالتاريخ والجغرافيا والهندسة وغيرها، كما تحدث عن عدد الأساتذة ورواتبهم ومهمات المراقبين وتحديد أوقات العطل وإقرار نظام الامتحانات والشواهد وغير ذلك[38].

ولا ننسى بهذا الصدد أن استباب نظام الحماية بالمغرب وانتقال العاصمة من فاس إلى الرباط جعل مركز الجامعة يتقلص من جراء التقصير والمضايقة من طرف الإقامة العامة الفرنسية التي كانت تقف أمام إصلاح القرويين حجر عثرة نظرا لدور الجامعة العتيقة بعلمائها وطلابها في التصدي للأطماع الاستعمارية.

ولتحديد مجال جامعة القرويين وجامعة محمد الخامس التي أنشئت عام 1957م تأسس المجلس الأعلى للتربية الوطنية عام 1960 وخطا خطوات مهمة في الإصلاح، إذ انصبت جهوده على مبدأ "التوحيد" في مرحلة اولى للتعليم تكون بمثابة "جذع مشترك" تتفرع منه مرحلة ذات شعب في السلك الثاني من الثانوي تؤدي حسب مواد التخصص إما إلى جامعة القرويين بما تضمه من كليات في الشريعة واللغة العربية وأصول الدين وإما إلى جامعة محمد الخامس بما تشتمل عليه من كليات للآداب والحقوق والعلوم والطب وغيرها.

ولكي تصبح جامعة القرويين مسايرة لتطور العصر الحديث فقد كان من اللازم إعادة النظر في الدراسة بها ووضع نظام جديد لها يسير وفق روح العصر وتطوره، حيث أصبحت الجامعة ابتداء من عام 1975 تخضع في تسييرها التربوي والإداري للظهير الشريف المنظم للجامعات المغربية وبذلك أصبح النظام المتبع في جامعة القرويين هو نفس النظام الذي تنضوي تحته باقي الجامعات والمعاهد العليا المغربية سواء فيما يخص نظام الدراسة أو الامتحانات أو الشهادات العليا، وأضحت الجامعة اليوم تضم الكليات التالية:

1- **كلية الشريعة بفاس** وهي الكلية الأم وتمثل امتدادا تاريخيا لجامعة القرويين القديمة وتهتم بالدراسات الفقهية والإسلامية والقانونية.

---

[38]- الدكتور عبد الهادي التازي، جامع القرويين 756/3، مرجع سابق.

2- **كلية اللغة العربية بمراكش** وهي امتداد تاريخي لكلية ابن يوسف بمراكش، وتهتم بالدراسات اللغوية والأدبية والإسلامية.

3- **كلية أصول الدين بتطوان** وتمثل امتدادا تاريخيا للمعهد الديني العالي الذي أسس عام 1944، وتهتم بالدراسات الفكرية والفلسفية، وقد أسست هذه الكليات الثلاث في فبراير عام 1963.

4- **كلية الشريعة بأكادير** وهي ثاني كلية للشريعة بالمملكة أحدثت في يونيه 1979 وتهتم بدورها بالدراسات الفقهية والإسلامية والقانونية.

وتتوفر جميع هذه الكليات على أقسام للدراسات العليا (دبلوم عال + دكتوراه) مكنت ولا تزال من تخريج أعداد كبيرة من الأطر العلمية والفكرية التي تسهم بفعالية في مجال التعليم العالي والقضاء والإدارة وغير ذلك.

جامعة القرويين وبعض آفاق الانفتاح الحضاري المنشود:

جامعة القرويين تعتبر أقرب الجامعات الإسلامية العريقة من الغرب الكنسي كما أنها كانت أكثر الجامعات الإسلامية انفتاحاً على الجامعات الغربية في العهود السابقة، وبالتالي فضرورة الانفتاح على اللغات ومناهج البحث العلمي الأجنبية فضلاً عن مواجهة التيارات الفكرية والثقافية المنحرفة مطلوب.

وكنموذج لما يطمح إليه الدكتور عبد الهادي التازي في جوابه عن سؤالي هو ما كان يخططه لحياته في هذه الدنيا عندما شعر بأن القرويين وحدها غير كافية، بما تمتلكه من عناصر جد قوية وجد مشرفة، ففكر أن يلتحق بالجامعة العصرية لاستكمال النواقص التي كان يشعر بها في القرويين، ومن خلال دراسته للغة الفرنسية، واستطاع أن يكتشف مباهج للغة العربية، إنما دلته عليها اللغات الأخرى، حيث يقول الفيلسوف الألماني "كوت": "من لم يعرف من اللغات إلا لغة فقد جهل حتى لغته" فيأمل من أبناء القرويين الجدد والذين ينتظرهم المستقبل أن يتمسكوا بهذا الاسم الشريف، ولكنهم لكي يحتفظوا به كما يجب، عليهم أن يلتفتوا إلى ما تقوم عليه الدول الأخرى في مختلف الحقول، ولا يمكن أن يهمل حقل دون الآخر، وبذلك سنجد أنفسنا أمام قرويين قوية ومتطورة، أمام قرويين تضمن وحدة البلاد والمستويات العلمية التي توجد فيها.

ضرورة الانفتاح على اللغات الأجنبية:

مما لاشك فيه أن النقص الحاصل في هذا المجال وخصوصاً على مستوى البحث الجامعي العالي هو الذي أسهم بحدة في قلة الاهتمام بالحوار الديني ومناقشة المستشرقين، إذ لا يخفى على المهتمين بهذا الشأن أن تحقيق ذلك يتوقف على إتقان اللغات الأجنبية، وإننا في هذا السياق نشيد بالجهود التي قامت بها جامعة القرويين في نطاق محاولة تطوير الدراسة وتحديثها في الكليات التابعة لها وتمتين تكوين طلبتها وفتح مجالات جديدة لهم وخصوصا عندما تم تقديم اقتراح يقضي بإحداث إجازتين: الأولى في العلوم الإسلامية واللغات الأجنبية الحية، وهي إجازة تمكّن الطلبة من التكوين المتين في العلوم الشرعية وكذلك من التكوين العميق بإحدى اللغات الأجنبية الحية، ويمكّن هذا التخصص الطلبة من تكوين متكامل في اللغة وآدابها معززا بتكوين قوي بإحدى اللغات الأجنبية.

وإذا سبق أن أكدنا على ضرورة اهتمام جامعة القرويين أساتذة وطلاباً بما يروج في عالم الاستشراق فإن ذلك لا يمكن تحقيقه من دون اتقان اللغات الأجنبية التي كتبت بها الأبحاث والدراسات الاستشراقية.

وإذا كانت الدعوة الإسلامية في امتداداتها خارج الوطن العربي تتطلب توافر دراسات حول حقائق الإسلام ومبادئه وأسسه بلغات أجنبية، فإن الواقع يدل على أن نسبة الأبحاث العلمية حول الإسلام التي وضعها باحثون مسلمون هي أقل كثيرا مما وضعه الأجانب من مستشرقين وغيرهم وخصوصاً أن هناك كتابات وأبحاثاً حول الإسلام تتولاها أقلام المستشرقين والغربيين المعنيين بشؤون الحضارة الإسلامية، وهي تروج في البلاد الإسلامية بشكل واسع على الرغم مما تحمله في طياتها من شبهات وطعون وافتراءات في حق المسلّمات والبداهات التي يؤمن بها المسلمون مما يشكل خطورة كبيرة على توجهات طلبة الدراسات العليا في الإسلاميات الذين قد تستهويهم كتابات القوم ومناهجهم وأساليبهم في الدراسة والتحليل والتقويم، فإزاء تلك الأبحاث والدراسات المشوبة بالطعون يكون إتقان اللغات التي كتبت بها أمرا ضروريا بالنسبة للباحث في العلوم الإسلامية من أجل دحضها والرد عليها أو التنبيه على الأقل على ما تعتريها من أخطاء وشبهات، وإذا علمنا أن جامعة الأزهر قد شرعت منذ عقود من السنين في تكريس الاهتمام التام في هذا المجال عن طريق إصدار كتب ومنشورات وترجمات لمعاني القرآن الكريم باللغات الأجنبية، فإن جامعتنا العتيدة مطالبة اليوم بمراجعة برنامجها الإصلاحي بقصد إدراج موضوع الاهتمام باللغات الأجنبية ضمن أوليات المرحلة المقبلة التي تشهد أوج انتشار

عولمة ثقافية وحضارية كاسحة لا عذر فيها لمن آثر النكوص والتقوقع والانزواء. وإذا علمنا أن تعلم بعض اللغات الأجنبية وخصوصاً اللاتينية في العهود السابقة لجامعة القرويين كان أمراً حاصلاً وإن كان في حدود ضئيلة فكيف ينبغي أن يكون عليه الأمر اليوم في عصر العولمة والسرعة في تبادل المعلومات والتطور العلمي والتكنولوجي الهائل.

جامعة القرويين ومواجهة التيارات الفكرية والثقافية المنحرفة:

ما ينتظر من جامعة القرويين الاعتناء به في سياق موجة التيارات الفكرية والثقافية التي أمست تطفح على الساحة العالمية بالمساهمة في مواجهة التحديات الفكرية التي تمس المنظومة الإسلامية في حضارتها وثقافتها وقيمها، فالتبشير والاستشراق والفكر التغريبي واليساري والاتجاهات العلمانية والفلسفات الإلحادية وغير ذلك من التيارات المعادية للإسلام التي ما فتئت تحدث تأثيراً قويا في صفوف الطلبة الجامعيين وعموم المثقفين تصدم الحس الديني لديهم وتستهويهم ببريقها الخادع.

إن جامعة القرويين، كانت فيما مضى معقلاً للدفاع عن الإسلام ضد كل فكر معادٍ ومناوئ يهدف إلى تقويض دعائم الفكر الإسلامي الصحيح وتشويه حقائقه الناصعة، وكان علماء جامع وجامعة القرويين لا يترددون في إبداء الرأي والقول الفصل في كل دعوة باطلة وفلسفة متهافتة أو فكر منحرف، فساهموا بذلك في صدها واخضاعها لعمليتي النظر والتمحيص فكانت جامعة القرويين بذلك قائمة بدور كبير في توجيه المعارف الثقافية والعلمية الوجهة الصحيحة.

إن المأمول من جامعة القرويين في ظل انفتاح حضاري فاعل أن تربط جسور الحوار والجدال مع رموز ودعاة مختلف التيارات والدعوات التي لا تنطلق من أرضية إسلامية ولا تعترف بالفكر الإسلامي الأصلي أساسا للتحكيم في شأن كل ما يطل من جديد على ساحة الفكر والثقافة.

إن المطلوب أيضاً التأهب للإجابة على الأسئلة العميقة التي يواجهنا بها القرن الجديد وما يحمله من متغيرات مذهلة وتنوع متعدد ومتناقض للأفكار والمذاهب الفكرية والثقافية، فصراع الثقافات وحوار الحضارات وواقع العولمة الكاسحة وغير ذلك من القضايا الملحة التي طرحتها الساحة الدولية ولا تزال في ظل الانفتاح الحضاري الهائل المفروض، كل ذلك يتطلب- من أجل الحفاظ على الهوية والثقافة الإسلامية الأصيلة- المواجهة البناءة عن طريق الحوار والإقناع والاقتناع والأخذ والعطاء، وهذا ما يفرض على جامعتنا إعداد وتكوين فعاليات وطاقات فكرية

مؤهلة كل التأهيل لتنهض بقواعد الحوار الحضاري والثقافي المطلوب، إن إعداد هذه الفعاليات الجامعة بين ثقافة الإسلام الصحيحة والعميقة بلغاتها الرئيسة يعتبر مسؤولية جامعة القرويين في أفق هذا القرن[39].

وإذا كان علماء جامعة القرويين في العهود السالفة قد برزوا وتفننوا في فقه النوازل والفتاوى وبرعوا في الإجابة على كل الوقائع المستجدة سواء أكانت فقهية أم غير فقهية، مبرهنين على قدرتهم الفائقة في الاجتهاد وإيجاد الأجوبة والحلول لكل القضايا المطروحة في زمانهم، فإن جامعة القرويين اليوم تجد نفسها من جديد أمام مستجدات فكرية وثقافية وحضارية متنوعة تتطلب الحلول وتستعدي المناقشة البناءة والتأهب الفاعل لمواجهة مختلف التحديات الفكرية بفاعلية ناجحة، ولعل من أخطر التحديات التي أصبحت الثقافة الإسلامية تواجهها في عصر التطور الإعلامي الهائل هو تلك الصورة المشوهة للإسلام التي أصبحت تكّرس في الغرب من خلال المنابر الجامعية والفكرية، وكذلك عن طريق معظم وسائل الإعلام الهائلة التي تروج لصورة موغلة في التشويه والازدراء بالإسلام.

ضرورة الانفتاح على مناهج البحث العلمي الأجنبية:

لا شك أن التعليم الإسلامي يولد روح الانتماء للأمة ويمنع التغريب الفكري والسلوكي، غير أن الهياكل الثقافية والعلمية في المجتمع الإسلامي لا ينبغي أن تنزوي على نفسها وتهرب من واقعها الذي يفرض عليها مقارعة الثقافات الأخرى، إذ من سمات المجتمع الإسلامي الانفتاح على الثقافات الأخرى في حدود الثقافة المقبولة المقيدة بقيود محددة والمنضبطة بضوابط معينة، وفي مجال البحث العلمي الجامعي نجد أن بعض الجامعات الإسلامية قد انفتحت على الجامعات الغربية في الاستفادة من مناهج البحث العلمي الحديثة التي تلائم طبيعة العلوم المدروسة بهذه الجامعات مع شيء من التقويم والترشيد ولا شك أن مستقبل الجامعات الإسلامية وعنوان تطورها وتقدمها يتمثل في مدى تطويرها لأساليب البحث العلمي ومناهجه وطرق التدريس التربوية ومسلكها، ولبلوغ هذه الأهداف لابد من مسايرة أحدث المناهج والانفتاح على الثقافات الأجنبية مع التقيد بضوابط وقيود معينة كفيلة بألا تسمح بأدنى اختراق أو غزو فكري، وقد أدرك المسلمون في الصدر الأول من الإسلام ضرورة الانفتاح على الثقافات الأجنبية ومناهجها، غير أن ذلك الانفتاح كان منضبطا ومقيداً، وإذا كانت بعض الجامعات في البلاد

39- مجلة جامعة القرويين العدد 11/1998 ص 34.



الإسلامية قد فتحت أبوابها لجميع المناهج الوافدة وطرق البحث الغربية من دون أدنى تفرقة منهجية بين ما هو صالح وما هو غير صالح، فإن الجامعات الإسلامية بحكم طبيعة المواد والعلوم المدروسة برحابها وبحكم الأهداف التربوية التي ترمي إليها ينبغي عليها أن تتعامل مع مناهج البحث العلمي الأجنبية بعقلية نافذة وواعية، حتى إذا ما تم اقتباس شيء من ذلك فإنه يجب أن يُصهر في قالب الذاتية الثقافية الإسلامية والمرجعية الأصلية التي تقوم وترشد وتوجه، إذ ينبغي عدم اعتبار مناهج البحث العلمي الغربية مناهج محايدة، وذلك للمؤثرات الفكرية التي تحيط بها، فلكل من المناهج الإسلامية والغربية مقوماتها وأصولها وأسسها ولاشك أن بينهما وجوها كثيرة من التباين والاختلاف، فالمناهج العلمية الغربية تقوم على مُسلمات أساسية تخالف مخالفة تامة مفاهيم الفكر الإسلامي وأصوله المبنية على عوامل قوية عميقة الجذور في العقيدة واللغة والأخلاق تجعل من غير الممكن تطبيق أو اقتباس جميع المناهج العلمية الغربية من دون تمييز أو تفرقة بين ما هو مناسب وما هو غير مناسب، فالمنهج المادي مثلا لا يسمح بتقويم الدين وآثاره الروحية والخلقية وبالتالي فإن الإفادة من مناهج البحث الغربية لا يمكن أن تتحقق إلا بعد عرضها على الأصول الإسلامية ومناهجها الأصيلة، إن منهج البحث العلمي الإسلامي يرتكز على الإيمان بالله وعالم الغيب والشهادة ويقر الإرادة الإلهية ويعترف بالجوانب الروحية في الإنسان، ويقوم على الموازنة بين المؤثرات الروحية والحضارية من دون أن يلتزم بعداً واحداً: وهذه السمات تميزه عن منهج البحث الغربي وتجعله يتفوق عليه إننا إذا كنا لا ننكر أن معظم مناهج البحث العلمي المتبعة في الجامعات الإسلامية هي من إبداع وتأسيس علمائنا الأسلاف الذين استطاعوا بوساطتها أن يبرهنوا على إقلاع علمي كبير وإبداع فكري واسع، فإن تطعيم تلك المناهج الأصيلة. بمناهج جديدة تمكن من دون شك من مسايرة ومقارعة التطورات الحديثة للعلوم مما يبدو أمراً مُلحاً وضرورياً.

من جهة أخرى فإن إفادة البحث العلمي الإسلامي من تكنولوجيا التعليم التي تستخدمها الجامعات المتقدمة في عالمنا المعاصر يعتبر أمرا مطلوباً، فالطالب في الجامعات الإسلامية يحتاج إلى أشهر عدة ليتمكن من جرد بعض كتب التاريخ والحديث للحصول على المعلومات نفسها في حين أن ظرف دقائق معدودة، عن طريق أجهزة الحاسوب وشبكة الإنترنت في بعض المعاهد والمكتبات الضخمة كالمكتبة الوطنية في باريس بحلتها الجديدة قد غذيت بمشاريع مهمة ذات بال تخدم الثقافة العربية والإسلامية بصفة عامة ·ولما كنا نعيش أوائل هذا القرن عصر انفجار المعلومات والاتصالات الآلية فإنه يتحتم على الباحثين المواكبة المسؤولة والدقيقة لكل ما يصدر في معاقل البحث العلمي الأجنبية من دراسات وأبحاث تتناول تاريخنا وحضارتنا وديننا

للعمل على تحليلها تحليلاً أكاديميا والرد على ما يستحق ذلك الرد بطريقة علمية، كما أن الباحثين في إطار الإسلاميات مدعوون للتعريف بخصائص دراستنا الإسلامية ونتائج بحوثنا للدفاع عن هويتنا وحضارتنا وديننا بجميع اللغات.

وأخيرا فوجهات النظر المرتبطة بآفاق الانفتاح الحضاري المنشود لجامعة القرويين تدفعنا إلى التأكيد على ضرورة البحث عن الخطط العلمية والثقافية الكفيلة بالنهوض بهذه الجامعة لمواكبة العصر ومسايرة مناهج البحث العلمي الحديثة في حدود ضوابط مقيدة من دون أدنى تنازل عن مقومات الأصالة والحفاظ على الخصوصيات الثقافية. إن غياب الاهتمام الحقيقي الملموس بواقع البحث العلمي بالصورة التي يتطلبها العصر وتستلزمها مشكلات المجتمع الإسلامي المعاصر وعدم تحديد أوليات **البحث** العلمي المتطور وتضييق فرص الانفتاح على الأجواء العلمية والمناهج البحثية الحديثة المفيدة، كل ذلك يسهم بشكل كبير في عرقلة جهود تنمية التعليم الإسلامي العالي الذي تترصده مؤامرات ودسائس خفية ترمي إلى إبقائه متقوقعاً ومنعزلاً.

إننا نريد لجامعة القرويين أن تكون جامعة أصيلة ومنفتحة تضاهي باقي الجامعات في مسايرة تطورات مناهج التعليم الإسلامي العالي وتقنيات البحث العلمي الأكاديمي، إننا لا نريدها جامعة تتغنى بأمجادها الغابرة ونحتفظ بها وفاء لتاريخها العريق، وإنما نصبو إلى أن تكون جامعة تتحمل مسؤولية نشر الثقافة الشرعية الأصيلة وحماية الثوابت والمسلمات الدينية وتصحيح صورة الإسلام وحمل لواء الأصالة والمعاصرة في آن واحد.

نماذج من رجال القرويين الذين أسهموا في التعريف بها:

1/ **الصبيحي، محمد بن الطيب**، باشا سلا وعالمها، ولد بسلا عام 1882/1299 ودرس بها أولا على القاضي عبد القادر بن محمد التهامي (ت 1937/1356) والعدل محمد المنصوري (ت 1928/1346) والقاضي الخطيب سي حتى الزموري (ت 1940/1359) وشيخ الجماعة بسلا أحمد بن ابراهيم ابن الفقيه الجريري (ت 1934/1353) والقاضي الحاج علي بن محمد عواد (ت 1935/1354) والفقيه أحمد بن بوبكر عواد (ت 1939/1358) ورحل إلى فاس سنة 1901/1319 لإتمام دراسته وبقي فيها إلى سنة 1906/1324 حيث أخذ الحديث

والفقه والأصول واللغة وقواعدها والبلاغة والمنطق عن **شيوخ القرويين المشهورين** أمثال التهامي ابن المدني كنون، وعبد السلام الهواري، وأحمد ابن الخياط، وأحمد بن محمد العلمي، ومحمد بناني الديوان، وأحمد ابن الجيلالي الأمغاري، ومحمد القادري، وأحمد بن المامون البلغيثي، والفاطمي الشرادي، ومحمد بن محمد كنون، والقاضي محمد بن رشيد العراقي وغيرهم، وقد أجازوه إجازات عامة وخاصة، وأخذ الحساب والفرائض والفلك والتوقيت والتنجيم عن الشيخ محمد بن علي الأغزاوي، كما قرأ الحساب أيضا بالرباط على الشيخ المهدي منجينوش.

وبعد رجوعه إلى سلا أخذ يلقي دروسا بجامع سيدي الحاج عبد الله بباب حساين، إلى أن أسند إليه منصب باشوية مدينة سلا بعد وفاة والده الحاج الطيب الصبيحي سنة 1914/1332 وظل يشغل هذا المنصب إلى الاستقلال (1956/1375)، كان ببيته الجميل الفسيح دائما مفتوحا في وجه زوار المدينة من علماء وشرفاء وصلحاء وكبار رجال المخزن يكرمهم وينفق عليهم بغير حساب، ولم يكن ينقطع طوال هذه الحقبة عن التدريس بمنزله بعد صلاة الصبح إلى الضحى. وقد لازمت هذه الدروس مع خالي محمد العوني تارة وصديقي عبد الرحمن ابن عبد النبي تارة أخرى نحو خمس سنوات قرأنا عليه أثناءها الحساب والجبر والمقابلة بكتاب القلصادي، ختمناه أكثر من مرة، والتوقيت بكتب الشيخ محمد العلمي المطبوعة على الحجر بفاس، والفلك بكتاب المناهج الحميدية في حساب النتائج السنوية لعبد الحميد موسى غيث الفلكي المصري وهو مبني على رصد جديد لشيخه حسين زايد ختمناه كذلك أكثر من مرة، ورصدنا ما حدث خلال ذلك من كسوف الشمس وخسوف القمر، كما قرأنا عليه القوانين الفقهية لابن جزي وكتاب الفقه على المذاهب الأربعة، وكان حديث الصدور في مصر.

لم يؤلف –على سعة علمه– سوى كتيب سماه انبلاج الفجر عن المسائل العشر (طبع بالرباط سنة 1940/1359) يجل رغم صغر حجمه على تحقيق المترجم وتدقيقه في مثل تقدير الزمن بين الاصفرار والغروب، وطلوع الشمس وخل النافلة، والفجر والأسفار، ووزن الدرهم الشرعي والمثقال أو الدينار، وخرص التمر والعنب الخ.

توفي بسلا بعد زوال يوم الأحد تاسع صفر عام 27/1389 أبريل 1969 ودفن تحت درج الخزانة العلمية الصبيحية خارج باب الخباز (بوحاجة) بسلا.

2/ ولد **الشيخ الشهيد عبد العزيز بن إدريس الزموري** قبيلة، العمراوي الحسني نسبا، عام 1325 هـ، موافق 1907 م؛ أخذ عن والده الشيخ عبد الرحمن وعن الشيخ محمد العلمي علوم الفلك والرياضيات والتوقيت، وحصل على **عالمية القرويين** سنة 1930م، وشارك في مقاومة الظهير البربري فكان من أول سجناء الوطنيين على يد الجلاد ابن البغدادي باشا مدينة فاس.

تميزت حياة الشيخ بأمور جعلت منه نموذجا للشباب المؤمن الغيور على دينه، منها:

☜ عقيدته السلفية التي جعلت منه أحد دعاة الإصلاح ونبذ الشعوذة والخرافة والبدع.

☜ غيرته على أمته التي جعلت منه أحد رجال الحركة الوطنية الأوائل، الذين استماتوا في محاربة الاستعمار، فجال المغرب طولا وعرضا داعيا إلى الثورة والجهاد، ووقع عريضة المطالبة بالاستقلال في 11 يناير 1944م، وعرف السجون والمنافي والتعذيب والتنكيل على يد المستعمر.

☜ منهجه الطريف في الدعوة الإسلامية، والتحريض على جهاد الفرنسيين خاصة في الأماكن القصية بجبال الأطلس، حيث كان يتنكر في ملابس (الحلايقية)، ويتجول في أسواق الجبال التي يحرم الاستعمار الاتصال بأهلها، ويقص في (الحلاقي) قصص الملك سيف بن ذي يزن وعنترة بن شداد ومختلف القصص الشعبية والطرائف التربوية، بجميع اللهجات المحلية (دارجة وأمازيغية)، وفي نفس الوقت يبث دعوته الدينية ودعايته السياسية والجهادية، ويتصل سرا بمن يريد وينسق حركة المقاومة للاستعمار.

3/ ولد **علال الفاسي** في (8 من المحرم 1328هـ= 20 من يناير 1910م) في مدينة فاس المغربية، ونشأ في بيت علم ودين، فأبوه السيد عبد الواحد كان يشتغل بالتدريس في جامعة القرويين، وعمل بالقضاء لعدة سنوات.

التحق علال الفاسي وهو دون السادسة من عمره بالكُتّاب، حيث حفظ القرآن الكريم وتعلم مبادئ القراءة والكتابة، ثم التحق بعد ذلك بإحدى المدارس الابتدائية الحرة التي أنشأها زعماء الحركة الوطنية في فاس، وكانت المغرب آنذاك قد خضعت للحماية الفرنسية سنة (1330هـ = 1912هـ) ووقعت في براثن الاحتلال.

ثم انتقل بعد ذلك إلى **جامعة القرويين**، وهي واحدة من أهم جامعات العالم الإسلامي، تخرج فيها كل زعماء الحركة الوطنية المغربية، وحفظت لبلاد المغرب لسانها العربي وثقافتها الإسلامية.

وبرزت شخصية علال في هذه الفترة وهو لا يزال طالبا، ولفت الأنظار إليه بفصاحته وعذوبة لسانه وقدرته على التأثير في مستمعيه، وجرأته في قول الحق غير هياب ولا وجل.

4/ الفقيد الشيخ محمد الحمداوي رحمه الله تعالى، أحد أبرز رواد الحركة الوطنية الاستقلالية منذ الثلاثينات من القرن الماضي، وأحد أقطاب دعاة الصحوة الإسلامية المعاصرة ومنظريها وشيوخها وعلمائها.

ولد رحمه الله تعالى بزاوية الشيخ أحمد التاغي بدائرة ابن أحمد بالمغرب، سنة 1913، وتوفي يوم الإثنين21 رمضان 1421 هـ موافق 18 /2000/12 .

حفظ القرآن الكريم وتلقى علومه بمسقط رأسه بالزاوية التاغية، ثم بالزاوية الناصرية، ثم بجامعتي **القرويين** وابن يوسف. ثم التحق بالحركة الوطنية الاستقلالية مناضلا ومجاهدا رفقة زملائه علال الفاسي والمختار السوسي وعبد العزيز بن إدريس رحمهم الله تعالى .

اعتقلته السلطات الفرنسية في 27أكتوبر1937 عندما قاد في الدار البيضاء أول مظاهرة مغربية مناهضة للاستعمار.

وقع عريضة المطالبة بالاستقلال مع قيادات الحركة الوطنية المغربية في 11 يناير 1944.

اعتقل سنة 1952 من قبل السلطة الفرنسية تمهيدا منها لنفي المغفور له محمد الخامس رحمه الله تعالى.

5/ المنوني محمد بن عبد الهادي أحد أعلام الثقافة المغربية، خبير في علم التراث المخطوط ' محنك في علم المكتبات، محقق متمرس وباحث يغوص في أرصدة المخطوطات والوثائق ليصل إلى ما هو أعمق، لسد الفراغات الواقعة في تراثنا التاريخي والحضاري ومن موقع إيمانه بالله جمع بين العلم والتواضع والكرم، ومواكبة البحث العلمي في التراث بمستجداته في أوسع إطلاع، فكان نموذجا متميزا لأخلاق العلماء وورعهم.

ولد العلامة محمد المنوني، حسب تدقيقه للتاريخ عند الساعة الرابعة، فجر يوم السبت 24 شوال عام 1333 موافق 4 شتنبر 1915، في مدينة مكناس حيث كانت تقيم عائلته أزيد من

ستة قرون، وينتمي إلى ذرية جده أبي الحسن علي بن منون الشريف الحسني وهو منسوب إلى فرع قاسم بن المولى إدريس الثاني.

1- في الدراسة: استوعب دراسته من مرحلتين في الزمان والمكان:

ففي مكناس خلال سنوات 1919-1938 حفظ كتاب الله في الكتاب، وأخذ العلم في مبادئه ومتونه عن مشاهير العلماء بمدينة مكناس على الطريقة التقليدية في الالتزام بحلقات التدريس وسرد الكتب ذات الحواشي أو بطريقة الإملاء دون الاستعانة بالكتب في منهجتين مختلفتين، وضم برنامج هذا التعليم عشرات الكتب المشهورة، وعرف بأغلب العلماء الذين أخذ عنهم في هذه الرحلة المعروفة اليوم بالمرحلة الابتدائية والثانوية.

وفي فاس خلال سنوات 1938-1943 التحق **بجامعة القرويين** فانخرط في التعليم العالي في الدراسة النظامية والحرة، فأخذ العلم في حلقاته عن علماء ومشايخ كثيرين من المشاهير، أمثال: الشيخ محمد ابن الحاج السلمي والشيخ محمد الجواد الصقلي والشيخ محمد عبد الحي الكتاني، وشيخ الإسلام محمد بن العربي العلوي وعشرات آخرين فأحرز على سبع عشرة إجازة من هؤلاء المشاهير حتى خرج بعد نيل "الشهادة العالمية" الكبرى في مستوى دكتوراة الدولة الحالية وسجل بذلك تفوقه في مختلف العلوم رواية ودراية.

2- في التدريس والنهوض بالتراث: منذ تخرجه انخرط سيدي محمد المنوني في سلك التعليم بمكناس تدريسا وتفتيشا خلال سنوات 1943-1961 بذل فيه مجهودا كبيرا في تكوين الناشئة على مستوى الابتدائي والثانوي، وفي هذه المرحلة ساهمت في العمل الوطني.

انتقل إلى الرباط ليشتغل ما بين سنوات 1961-1988 بممارسة العمل المكتبي فكشف عن أرصدة هائلة من نوادر المخطوطات وساهم في فهرسة مخطوطات العديد من الخزانات، وبالخصوص الخزانة العامة بالرباط، والخزانة الحسنية، والخزانة الناصرية، وخزانة الجامع الكبير بمكناس وخزانة القرويين بفاس والخزانة الحمزية بالراشدية وخزانة المعهد الإسلامي بتارودانت وغيرها من الخزانات داخل المغرب وخارجه. وقد عين رئيسا لمصلحة المخطوطات بوزارة الثقافة. وخلال الفترة ما بين 1988 و1999 انخرط في التعليم الجامعي أستاذا بكلية الآداب بالرباط. لتدريس التاريخ ومادة المصادر، وعلم المخطوطات والوثائق، وتاريخ المكتبات، وألقى نفس الدروس في دار الحديث الحسنية ومدرسة علوم الإعلام، وأشرف في هذه المؤسسات على العديد من الرسائل الجامعية. وفي هذه الفترة ساهم بإلقاء محاضرات موازية في لقاءات علمية وندوات داخل المغرب وخارجه.

3- في إنتاج المعرفة: شق الأستاذ المنوني طريق البحث العلمي وحطم الحواجز بين البحث التقليدي والبحث الحديث، وقد انخرط في أجيال من الشباب فتكونت بينهم وبينه علاقات وطيدة على صعيد الإنتاج العلمي في حقول كثيرة وقد جمعت كتاباته عتاقة التقليد وطموحات الحداثة. فكان مرجعا في الأبحاث المتعلقة بالفقه والتاريخ والآداب واللغة والفلك والطب بل استفاد منه الباحثون في تخصصات علم الاجتماع والأنتربولوجيا والاقتصاد والقانون واللسانيات وعلوم أخرى حديثة. فأنتج للمكتبة العربية قرابة مائتي بحث ودراسة وكتاب يمكن الرجوع إليها مفهرسة في مجلة دعوة الحق سنة 2003 عدد 371 ص 41 فما بعد، وقد خلف خزانة كتب نادرة من عيون المخطوطات والمطبوعات اشتراها جلالة الملك محمد السادس من ورثته فألحقها بالخزانة الحسنية بالرباط وهي مفهرسة الآن لتكون رهن إشارة الباحثين، وضمنها رسائله الشخصية المتبادلة مع الباحثين في المغرب وفي المشرق ومع العديد من المستشرقين في كثير من الدول الغربية وهي مصنفة ومفهرسة تبلغ 3000 رسالة ووثيقة، وهي ثروة هائلة ورصيد فكري متميز. وقد نال تقديرا لجهده الدؤوب عدة أوسمة وتنويهات بالخصوص من الجهات الرسمية والمؤسسات العلمية.

6/ الدكتور الأستاذ عبد الهادي التازي، ولد في 15 يونيه 1921 بفاس، نال شهادة العالمية من جامعة **القرويين** سنة 1947، وعين أستاذا بها سنة 1948 ، حصل سنة 1953 على بروفي معهد الدراسات المغربية، أحرز سنة 1963 على دبلوم الدراسات العليا من كلية الآداب بالرباط، كما حصل على شهادة في اللغة الإنجليزية من معهد اللغات ببغداد سنة 1966 وفي سنة 1971 أحرز على دكتوراه الدولة من جامعة الإسكندرية (موضوع الأطروحة: **جامعة القرويين**). عمل سفيرا للمغرب لدى ليبيا، العراق، إيران، والإمارات العربية. كما اشتغل مديرا للمعهد الجامعي للبحث العلمي بالرباط. ساهم في تأسيس اتحاد كتاب المغرب وأكاديمية المملكة المغربية، كما أنه عضو في مجموعة من الهيئات الثقافية: المجمع العلمي العراقي (1966)، مجمع اللغة العربية بالقاهرة (976)، المعهد العربي الأرجنتيني (1978)، مجمع اللغة العربية الأردني (1980) ومجمع اللغة العربية بدمشق (1986)، والأكاديمية الهاشمية بالأردن، وحياته تزخر كل يوم بعطاء جديد، أطال الله عمره وأفادنا بعلمه ونوره.

7/ **البلغيثي** (1348 هـ/): القاضي الفقيه العلامة المشارك الأديب اللامع، أبو العباس أحمد بن المأمون البلغيثي، ممن أدرجوا منذ البداية في الدرجة الأولى للعلماء لشدة إقباله على التدريس والتأليف، وقد ولي القضاء في كبريات مدن المغرب: البيضاء-مكناس-الصويرة، كما تولى عضوية مجلس الاستئناف الشرعي. له عدة مؤلفات في مختلف الفنون، منها: الابتهاج بنور السراج، شرح فيه منظومة القاضي الأديب المستاري في آداب طالب العلم في مجلدين، طبع بمصر. مقدمة تأليف تشنيف الاسماع، الدرر الفاخرة، التراجم للسراج – تاريخ أسفي وما إليه (القسم الثاني) إيقاظ السريرة ص 143-144.

8/ **الدكتور الأستاذ محمد الروكي**، مواليد سنة 1953 بتاونات نواحي مدينة فاس، أستاذ التعليم العالي مادة أصول الفقه بكلية الآداب محمد الخامس الرباط، أستاذ كرسي لمادة الفقه وأصوله بجامع القرويين بفاس المؤهلات العلمية: دكتوراه الدولة في الفقه وأصوله "نظرية التقعيد الفقهي وأثرها في اختلاف الفقهاء" بجامعة محمد الخامس سنة 1992، الماجستر في قواعد الفقه المالكي بكلية الآداب جامعة محمد الخامس بالرباط سنة 1989، شهادة الدراسات الجامعية العليا حول "القاضي عبد الوهاب وجهوده في الفقه المالكي" بكلية الآداب محمد الخامس الرباط سنة 1987، الإجازة في الدراسات الإسلامية سنة 1977 بكلية الشريعة فاس، رئيس جمعية خريجي الدراسات الإسلامية العليا بالرباط، عضو مكتب في معلمة القواعد الفقهية بمجمع الفقه الإسلامي بجدة، عضو جمعية ملتقى العلوم والمجتمع بالرباط، عضو رابطة الأدب الإسلامي العالمية، يشرف على العديد من الأطروحات والدراسات والبحوث في كثير من الجامعات المغربية، أستاذ محاضر وله عدة مشاركات في لقاءات علمية وطنية ودولية. له كتابان مهمان: "نظرية التقعيد الفقهي" و"قواعد الفقه الإسلامي من خلال كتاب الإشراف"، جزاه الله عن الأمة الإسلامية كل خير وزاده فقها على فقه.

وأرجو الله العلي القدير أن تكون هذه المبادرة باعثة لشباب اليوم وهم صفوة كل أمة وقاضتها وموقظا لهممهم فيسيروا على **نهج هؤلاء المصلحين وغيرهم** ويهتدوا بهديهم فيصلحون ما تبقى وينهضوا بأمتهم من أجل الوصول إلى غد أفضل والله يوفقهم.

وجهة نظري:

ليس يغيب على محقق أياً كان انتماؤه أن النهضة العلمية في ظلال الإسلام إنما هي وجه واحد من جوانب الحضارة الإسلامية باتساعها وعمقها، وليس من المجدي محاولة فصل أو عزل إسهام عرقي بعينه، عربياً كان أو غيره عما عداه. ولا يعتقد أن هناك حكمة تُرجى أو نفعاً يُؤتى من وراء مثل تلك المحاولة، ومثلما أن للحضارة الإسلامية نهضتها العلمية فإن لها أيضاً نهضتها الفنية العمرانية والمعمارية بكل تفرعاتها، وعلى العكس مما حدث في النهضة العلمية من محاولة إلباسها عباءة عربية، فإن محاولة شبيهة على النطاق نفسه لم تظهر فيما هو أوسع انتشاراً وأكثر إثارة ووقعاً وإبهاراً ولم يزل واقعاً ملموساً: مثل العمارة الإسلامية، والآثار الإسلامية، والمدن الإسلامية، والاقتصاد الإسلامي، والحدائق الإسلامية، والجامعات الإسلامية القديمة (مثل **القرويين**، والزيتونة، والأزهر)، والعدالة الإسلامية، والتربية الإسلامية، وقائمة لا نهائية من المآثر والمفاخر التي تمثل النهضة العلمية جزءًا منها، ولا يمكن لمفكر مهما كانت سعة خياله أن ينسب جميع هذا لجنس، أو يجزئه ويفتته عرقياً لسبب تشكيكي غامض أو آخر.

وإذا كان يكفي الحضارة الإسلامية شرفاً وزهواً تجسيدها لشريعة وعدالة الله في أرض الله، وبين خلقه كافة، فإنها سوف تظل تسجل بكل الفخر والاعتزاز والرضا أنها فاقت كل ما عداها، بطول التاريخ البشري المعروف تحضراً وإنسانية ورقياً، فهي حضارة حققت قدراً عالياً، ونطاقاً واسعاً من التفوق التقني المتطور في عصرها، وكان ذلك دافعاً لها إلى مزيد من البناء والتشييد والإعمار، ولم يغرها تفوقها المادي بطغيان والبغي في الأرض مثلما فعلت مدنيات الثقافات الأخرى، ولم تزل تفعل إلى يومنا، ولأن نهضتها العلمية قامت وبقيت تعمل وتعطي في إطار الضوابط والقيم والمبادئ الإسلامية، فإنها لم تحاول -ولم تشأ- أن تتحرك صوب إنتاج أسلحة تدمير شامل لا تبقي ولا تذر، وقد كان بإمكانها تحقيق ذلك لو أن إسلامها سمح لها.

ولم تخلف تلك النهضة العاقلة أداة عدوان واحدة على الطبيعة ولم تتجه جهود التنمية الهائلة فيها إلى تحقيق ما حققته من الرخاء والازدهار على حساب الموارد الطبيعية التي احترمت أُسسُ الإسلام تكاملها وحقوق الأجيال المتعاقبة في التمتع بعطائها، فكانت تنميتها مُبقية "للحفظ والصون والبقاء" ولم تكن مفنية "للإهلاك والإهدار والفناء"، وهكذا تتجلى عظمة الإسلام في حفظ نهضة علمية فريدة عاقلة منضبطة، تعرف حدودها فلا تتجاوزها، وحدودها حفظ

الحقوق واحترامها، حقوق الخلق في الحياة وحقوق المخلوقات في البقاء، وحقوق الأرض في العمار: حدودها باختصار، أن تقدم فقط ما ينفع الناس فيمكث في الأرض.

ولنشر الإسلام والدعوة إليه، كما كان -دور القرويين- في السابق ملجأ وأهلا له، يقول الدكتور عبد الهادي التازي إنه لما تكون القرويين على الصفة التي يجد فيها أهل الجبل بغيتهم، وأهل الصحراء بغيتهم، ويجد فيها الشباب منيتهم كذلك، فيما يسعون إليه من تحصيل العلوم.

إذ ذاك ستكون رسالتهم إلى الآخرين سهلة الأداء، معقولة البناء، لذلك دور القرويين يمكن أن نقوم به مجددا فيما يتصل بالبلدان المجاورة، وخاصة في القارة الإفريقية التي نحن مطوقون بها ومسؤولون عن مصيرها، كما كانت بالأمس ينبغي أن تكون بالغد، بحيث في نظري أن القرويين بمقدار ما تفوت ماديا وأدبيا، وبمقدار ما تفتحت على الغير، إذ ذاك ستستمد قوتها من هذا الواقع، إذ ذاك ستجد من يستمع إلى دعاتها وإلى رجالها، كما كانت في العهد السابق عندما كنا نجد عددا من العلماء يرحلون إلى هذا الجانب أو ذاك، ويؤدون رسالتهم أحسن أداء.

أما **السبيل** لإعطاء الأهمية لمثل هذه المؤسسات، روحيا وماديا، والاعتناء بعلمائها، فهو أن نحاول بكل ما نمتلك من قوة أن نطعمها بالمواد العصرية -ونقوم بتطوير آليات القرويين بالحواسيب وغيرها من وسائل ومناهج لمواكبة طلابها، طلاب جامعات ذاع صيتها في حين خمد لجامعتنا نورها-، التي تجعل منها جامعة تحتفظ بطابعها الديني والإسلامي في الوقت الذي تفتح فيه أبصارها على ما يجري في الدنيا. فالوسيلة أو الوسائل التي تتبعها جامعة الأزهر في الظروف الراهنة؛ حيث تتوفر على جامعات للطب، وكليات للعلوم، وعلى كليات للشريعة، ولكن هناك جذعا مشتركا يلتقي فيه الطلبة الذين يتوجهون إلى الدراسات الإسلامية وإلى الدراسات الطبية والعلمية وحتى الموسيقية والرياضية، يحبذها الدكتور عبد الهادي التازي. إننا مدينون لهذه القرويين التي كانت الضمانة الوحيدة لوصولنا إلى ما وصلنا إليه، وهي الآن تطلب منا أن نزودها بكل المقومات وبكل العناصر، التي تجعل منها جامعة حية قادرة على الوقوف على رجلها، نحن بحاجة في هذه القرويين -ليس إلى لغة واحدة- إلى لغات أخرى لكي نفهم الدنيا بكاملها، لاسيما ونحن نعلم اليوم أن أطراف العالم اقترب بعضها إلى بعض، وأصبح العالم كله يكون قرية صغيرة، ولابد لهذه القرية الصغيرة أن يستفيد بعضها من بعض، ولابد أن تفتح آذانها لما يجري عند جيرانها حتى تستطيع أن تواكب المسيرة.

فالوسيلة الوحيدة لرجوع القرويين إلى مركزها، وإلى أن تقوم بدورها كما يجب، وأن تفتح عيونها على ما يجري خارج رقعتها عن طريق **تعلم اللغات** وعن طريق إدماج بعض

المواد ... فمن المستحب الإبقاء على اسم القرويين كما هو، والجعل من هذه القرويين جامعة عصرية من دون فرق بين مادة ومادة، وهكذا يشعر المتخرج من هذه القرويين بأن هذا الاسم وهو القرويين لها معنى قوي ودلالة سامية وأنه يعتز به ويفخر كما يعتز الآخرون بانتمائهم إلى جامعات تحمل أسماء عصرية.

خاتمة

وبعد؛ فأود أن لا تفوتني هذه الفرصة دون أن أتقدم بالشكر والتقدير لكل الذين ساعدوني في التعرف على هذه "المعلمة الإسلامية التاريخية الكبرى" بما أسدوه إلي من جليل الإفادات ... سواء منهم الذين اقتبست من مؤلفاتهم، واعتمدت على وثائقهم أو اهتديت برسائلهم أو اقتحمت عليهم مكتباتهم الخاصة والعامة فكنت أجد فيهم قلوبا مفتوحة ومساعدات غير مشروطة ...

ولا أنسى أن أذكر أساتذة لنا كان لهم فضل التدليل على الطريق وفضل التشجيع على المضي فيه الذين لن أستغني أبدا عن شرف صحبتهم أينما كنت وحيثما حللت.

بعض المصادر مما لم أذكره في الهامش

- أحمد بن رحال بغداد، جامعة القرويين ودورها في الحركة الإصلاحية والتحريرية بعد مطلع القرن العشرين، رسالة في دار الحديث الحسنية، سنة 1988.
- أرسلان شكيب: الحلل السندسية في الاخبار والآثار الأندلسية 1355=1936.
- شمس الدين أبي عبد الله محمد بن عبد الله اللواتي الطنجي ابن بطوطة: رحلة ابن بطوطة المسماة تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، طبعة أكاديمية المملكة المغربية سنة 1417هـ/1997م، رقم الإيداع 1997/320، قدم له وحققه ووضع خرائطه وفهارسه الدكتور عبد الهادي التازي.
- التازي (عبد الهادي): القرويين في أحد عشر قرنا، طبعة فضالة 1960.
- التازي (عبد الهادي):جامع القرويين المسجد والجامعة بمدينة فاس (بيروت 1962).
- التازي (عبد الهادي): نموذج من حياة (مهيأ للطبع).
- جامع القرويين، الكتاب الذهبي
- الجزنائي: جنى زهرة الآس، نشر الأستاذ بيل (الجزائر) ونشر الأستاذ ابن منصور (المغرب).
- ابن أبي زرع: الأنيس المطرب بروض القرطاس. طبعة فاس.
- ابن زيدان (النقيب): الدرر الفاخرة في مآثر العلويين بفاس الزاهرة. المغرب.
- السائح (محمد بن عبد الاسلام): لسان القسطاس بتاريخ مدينة فاس (مخطوط).
- السوسي (المختار) رد على كولان الذي ينفي الجامعية عن القرويين قبل عهد بني مرين (مخطوط).
- غنيمة (محمد): تاريخ الجامعات الإسلامية. شهوان (1956).

- الكتاني (محمد بن جعفر): سلوة الأنفاس.
- الكتاني (ع.ح): ماضي القرويين ومستقبلها (مخطوط بالخزانة العامة) رقم 3354.
- الكتاني (ع.ح): أوقاف القرويين وناظرها (مخطوط) رقم 2929.
- الكتاني (المنتصر): القرويين أقدم جامعة في العالم محاضرات جامعة دمشق 1961.
- كنون (عبد الله): النبوغ المغربي، الطبعة الثانية، بيروت 1961.
- الناصري (أحمد): الاستقصا لأخبار المغرب الأقصى، نشر ولديه جعفر ومحمد، دار الكتاب، بالدار البيضاء 1954.
- نظارة أوقاف فاس: الحوالات الحبسية لجامعة القرويين (مخطوطة، هي الان بالخزانة العامة بالرباط).
- وزارة التربية الوطنية – إدارة الشؤون الثقافية: الكتاب الذهبي، جامعة القرويين في ذكراها المئة بعد الألف، جمع وتنسيق عبد الهادي التازي، الكاتب العام لمهرجان عيد القرويين.
- ابن ابراهيم (العباس) صناعة رجال القرويين في التأليف وأشهر مصنفاتهم (مجلة المغرب).
- التازي: أقدم ساعة مائية في العالم توجد بمنار القرويين، جريدة العلم المغربية، عدد 27-1-1958 وعدد 28-1-1958.
- التازي: جامعة القرويين، مجلة العربي الكويتية عدد مارس ومايو 1958.
- التازي: نظرية جديدة في تاريخ بناء جامع القرويين مجلة معهد الدراسات الإسلامية، مدريد، المجلد السادس 1958. مجلة الجمعية المصرية للدراسات التاريخية، العدد الثامن 1959، مجلة الفكر التونسية السنة الخامسة، عدد 6 مارس 1960.
- التازي: جامع القرويين دعوة الحق، مارس، مايو 1958.
- التازي: إلى الأستاذ لاندو – دعوة الحق، نونبر 1958.
- التازي: الإمام داود بن ادريس من خلال الوثائق التاريخية، الدعوة، أبريل 1960-62، مجلة مجمع اللغة العربية، دمشق، المجلد 36 جزء 2-212.

- التازي: جامعة القرويين في ذكراها المائة بعد الألف، مجلة الإذاعة الوطنية، عدد أكتوبر 1960.
- التازي: توأمة فاس والقيروان أقدم توأمة عرفها التاريخ وتوأمات أخرى مجلة (المغرب) وزارة الممثل الشخصي لجلالة الملك، مايه، يونيه، 1965 تاريخ بناء القرويين، من (الكتاب الذهبي ...).
- التازي: من الوثائق التاريخية المغربية في بغداد (دعوة الحق) أبريل، ماي 1967.
- الجراري (عبد الله): أقدم جامعة ؟ المغرب الجديد 5 يونيه 1963.
- الحجوي (محمد): المرأة المغربية المثقفة، مجلة المغرب، أوت، دجنبر 1935.
- الحجوي (محمد المهدي): القرويين والعلويين، مجلة المغرب، عدد خاص بالقرويين، نونبر، دجنبر 1936.
- حجي (سعيد): سلطان الطلبة بمناسبة نزهته المقامة الآن بفاس ومراكش، مجلة الثقافة المغربية، عدد 6، 12 مايه 1938.
- ابن الحسني (عبد الكريم): تحية جامع السنة إلى جامع القرويين، الكتاب الذهبي ص: 158-172.
- الرحالي (الفاروق): القرويين وكلية مراكش (الكتاب الذهبي).
- ابن زيدان: العلويون وتعليم البنات، مجلة المغرب، غشت شتنبر 1935.
- السايح (حسن): المناهج الدراسية بالمعاهد الأصلية، الكتاب الذهبي. قصة سلطان الطلبة، جريدة آخر ساعة 23 مارس 1963.
- السراح (محمد): المركز الاجتماعي لعلماء جامعة القرويين، الكتاب الذهبي.
- ابن شقرون (الحاج أحمد): القرويين بين الأمس واليوم (الكتاب الذهبي) ص: 122.
- الشنقيطي (محمد الأمين): جامعة القرويين بين القديم والحديث، الكتاب الذهبي، ص: 89-92.
- الصبيحي (محمد): شهيرات النساء، مجلة المغرب، نونبر 1935.

- بنعبد الله (عبد العزيز): مؤسساتنا الجامعية بين جامعات العالم، جريدة (العلم)، عدد 22-12-1957 وعدد 23-12.
- العمراني (عبد الله): فاس وجامعتها، البحث العلمي، مايه، دجنبر 1967.
- الفاسي (محمد): دور القرويين في جعل فاس من بين العواصم الإسلامية الكبرى –الكتاب الذهبي ص: 109.
- الفاسي علال: ماضي القرويين، مجلة المغرب، العدد الثالث، سبتمبر 1932.
- الفاسي العابد: خزانة القرويين ونوادرها، المجلد 5 معهد المخطوطات العربية 5 مايه 1959.
- الكتاني (ع.ج): ماضي القرويين وحاضرها. مجلة المغرب، العدد الثالث، مجلة المغرب 1932.
- الكتاني (ادريس): سلطان الطلبة، مجلة الرسالة المصرية، العدد 287، 1938.
- الكعاك (عثمان): الجامعات المغربية وأثرها في جامعات أوروبا، البحث العلمي دجنبر 1965 العدد 27 أكتوبر 1965.
- لاندو (روم): حول القرويين، مجلة رسالة المغرب، 11 يونيو 1951.
- المنوني (محمد): مدخل إلى تاريخ القرويين العلمي، مجلة التربية الوطنية، أبريل ومايو 1963 الكتاب الذهبي.
- النيفر (الشاذلي): مساهمة القرويين في اللقاح العلمي بين المغرب وتونس (الكتاب الذهبي).
- بوطالب ثريا: المرأة المغربية –مجلة (العربي) الكويت، أكتوبر 1959 ونقله كتاب "المطالعة الجديدة" للمدارس الثانوية، تأليف: جماعة من الأساتذة ص: 191.
- جامع القرويين (المسجد الجامعة) في ثلاث مجلدات، مطبعة دار الكتاب اللبناني، بيروت 1972.
- د. التازي: ألفاظ الحضارة في الوثائق المغربية ذات الطابع الدولي، مجمع اللغة العربية بالقاهرة 1989.
- أقدم نقش عربي في مالديف، مجمع اللغة العربية بالقاهرة، مارس 1991.

- ابن حجر: الاصابة – الدرر الكامنة.
- ابن الحسني عبد الكريم: جامع القرويين، بحث نشر ضمن الكتاب الذهبي الذي صدر بمناسبة مرور أحد عشر قرنا على تأسيس القرويين. تاريخ 1960.
- ابن الخطيب: الاحاطة في أخبار غرناطة في أربعة أجزاء تحقيق عبد الله عنان، طبعة ثانية، 1393=1973.
- ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون، دار الكتاب اللبناني 1983.
- ابن دحية أبو الخطاب عمر: المطرب في أشعار المغرب، طبع دار العلم للملايين 1954.
- الزركلي خير الدين: الاعلام في عشرة أجزاء.
- ابن أبي زرع: الأنيس المطرب بروض القرطاس، دار المنصور للطباعة والنشر-الرباط 1973.
- ابن زيدان: إتحاف أعلام الناس، طبع الرباط 1347=1929. المنزع اللطيف، تحت الطبع، تحقيق وتقديم عبد الهادي التازي.
- الدكتور عبد الهادي التازي، المرأة في تاريخ الغرب الإسلامي، نشر الفنك 1413هـ/1992م.

الفهرس

